الكتاب الحادي والعشرون

إجبار بلدوين الرابع المجذوم على تولي الحكم في القدس

١ ـ ما يتعلق ببداية فترة حكم بلدوين الرابع الملك السادس للقدس وما يتعلق ايضا بأسلوب حياته وسنه ومظهره.

كان بلدوين الرابع(٢٩٨) هو الملك اللاتيني السادس للقدس وكان ابنا لعموري ذلك الملك صاحب الذكرى اللامعة الذي كنا نكتب عنه منذ لحظات ، وكانت والدته هي الكونتس أغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها الذي تكرر ذكره أيضا في الصفحات السابقة ، وكان كما ذكرت من قبل عندما دعي عموري لاستلام عرش أسلافه ، بموجب حقوقه الوراثية ، أقدم على تطليق أغنس ، واقتيد لهذا العمل بسبب ضغط الكنيسة ، حيث أجبره على تطليقها أمالرخ صاحب الذكرى الطيبة الذي كان بطريركا للقدس في تلك الأثناء فقد سار على خطا سلفه فولتشر ولقد ادعى ـ وكان ذلك صحيحا بالفعل ـ أن قرابة الدم بين عموري وأغنس كانت قريبة جدا ، وكنت قد شرحت هذه الحقيقة بحذر عندما كنت أعالج بالتفصيل فترة حكم الملك عموري (٢٩٩) .

وعندما كنت رئيسا لشماسة مدينة صور كان الملك عموري قلقا بشأن تعليم ابنه ، وقد استطاع إقناعي بتولي هذه المهمة وذلك بعد ممارسته ضغوطا شديدة علي ، وبضمان شخصي منه ، بمنحي تأييده وحظوته (٣٠٠) ، وهكذا عهد برعاية الطفل إلي وكان آنذاك في حوالي التاسعة من عمره ، وذلك لأعلمه وأثقفه في الدراسات العقلية ، وبينما كان الطفل الملكي تحت رعايتي أوقفت نفسي على

العناية به بيقظة واهتممت بـه اهتمـاما يليق بمنزلتـه الممجـدة ، وحاولت تدريبه على صياغة أشـكال الحـروف ، وأن القنه أيضـا القراءة والكتابة ، وحدث أنه كان يلعب في أحد الأيام مع رفاق له من منزلة نبيلة عندما بدأوا يقرصون أذرعتهم وأيديهم بـأظافرهم كمـا يفعل الفتيان عادة ، وقدم الفتية الآخرون دليلا عن الألم بصرخاتهم إلا أن بلدوين تحمل الألم بصبر بـالغ على الرغم مـن أن رفـاقه لم يوفروه ، وتصرف وكأنه لم يشعر بشيء ، ونقل الأمر إلي بعدما حدث مرات عديدة ، واعتقدت في بدء الأمر أن هذا صادر عن مقـدرته على الاحتمال وليس من فقدان الحسـاسية ، إلا أنني اكتشـفت عندمـا ناديته وبدأت أسـتفسر مـاالذي يعنيه ذلك ، أن ذراعه ويده اليمنى كانتا فاقدتي الحس جزئيا لدرجة أنه لم يشـعر بـالقرص أو حتـى بالعض على الاطلاق ، وبدأت أرتبـك متـذكرا أقـوال الرجـل الحكيم : « من المؤكد أن العضو الذي بلا إحساس يقلل كثيرا مـن صحة الجسـد ، وأن الانسـان الذي لايدرك أنه مـريض هـو في خطر » (٣٠١) .

أبلغ والد الغلام بوضع ابنه ، واستشير الأطبـاء ، واسـتخدمت كمادات متكررة وتدليكات بالزيت وحتى علاجات سامة دون نتيجـة كل ذلك كمحاولة لمساعدته ، حيث لاحـظنا بمـرور الزمـن وجـود علامات على مرض خطير للغاية من المحال شفاؤه ، وهذا ما اتضح فيما بعد تماما .

من المستحيل الاحجام عن البكاء لدى الحـديث عن هـذه المحنة الكبيرة ، لأنه اتضح ، عندما بدأ يقترب من سـن الرشـد ، أنه كان يعاني من مرض الجذام الخطير . وازدادت حالته سوءا يومـا إثـر يوم ، فقد هاجم المرض الأطراف والوجه بشكل خـاص بحيث تـأثر خدمه المخلصون شفقة وأثيرت عواطفهم عندما نظـروا إليه ، ومـع ذلك ، فقد استمر يحقق التقدم في مواصلة الثقـافة ، وقـدم بشـائر واعدة دوما على امتلاكه لطبيعة محببة . وكان جميل المظهر بالنسبة لسنه ، وفارسا ممتازا بشكل يفوق كثيرا عادة أجـداده ، وكان على

دراية بمعاملة الخيول ، وكانت له ذاكرة قوية ويحب الحديث ، وكان مقتصدا لكنه كان يتذكر دائما الرعايات والاساءات ، وشابه أباه في كثير من الملامح ، ليس في الوجه فقط بل في سائر مظهره ، حتى في مشيته ولهجة صوته أيضا ، وكان ذكاؤه حادا ، إلا أنه في كلامه كان متلعثما بعض الشيء . واستمع كأبيه بتلهف إلى التاريخ ، وكان ميالا بشكل جيد لتتبع النصيحة الجيدة (٣٠٢) .

٢ – ما يتعلق بتاريخ ترسيمه و تتويجه .

لم يتجاوز بلدوين الرابع الثالثة عشرة من عمره يوم وفاة والده ، وكانت له أخت كبرى تدعى سيبيلا مولودة من الأم ذاتها قد نشأت في دير القديس لازاروس في بيسان وتربت على أيدي السيدة ايفيتا التي كانت عمة أبيها من ناحية الأم ، والتي كانت راعية للدير .

وإثر وفاة الملك عموري اجتمع نبلاء المملكة الدينيون والعلمانيون على حد سواء في مجلس واحد ووجد أن رغبات الجميع كانت في انسجام تام ، وهكذا رسم بلدوين وتوج بإجلال وحسب الأعراف في كنيسة قبر الرب وذلك في الخامس عشر من شهر تموز وكان اليوم الرابع بعد وفاة والده ، وترأس الطقوس بطريرك القدس أمالرخ ذو الذكرى الطيبة بمساعدة رؤساء الأساقفة ومطارنة الكنيسة الآخرين.

وكان البابا ألكسندر الثالث رئيسا لكنيسة الروم في هذا الوقت ، وكان إيمري بطريركا للكنيسة المقدسة في أنطاكية أما أمالرخ فكان بطريركا للقدس . وكان فريدريك رئيسا لأساقفة مدينة صور ، والأمبراطور مانويل صاحب الشهرة الكبيرة والذكرى الورعة يحكم في القسطنطينية ، وفريدريك امبراطورا للرومان بينما كان لويس ملكا للفرنجة ، وكان هنري بن غودفري ، كونت آنجو يحكم في بريطانيا ، في حين كان وليم الثاني بن وليم الأكبر يحكم في صقلية ،

وكان بوهيموند بن الأمير ريموند يحكم أنطاكية ، وريموند الأصغر ابن الكونت ريموند الأكبر يحكم طرابلس .

٣ – معاناة أسطول أرسله ملك صقلية من خسارة كبيرة جدا أمام الاسكندرية في العام الأول من فترة حكم بلدوين الرابع . كونت طرابلس يطالب ، بالوصاية على المملكة و بنيابة الملك بحكم قرابته منه .

وفي العام الأول من فترة حكم الملك بلدوين الرابع في حوالي بداية شهر آب (٣٠٣) أرسل الملك وليم صاحب صقلية أسطولا مؤلفا من مائتي سفينة لمهاجمة الاسكندرية . وأبحر الأسطول إلى مصر مع قوة رائعة من المشاة والفرسان . وقد تكبدت جميع قوات المشاة والفرسان خسائر كبيرة بالموت والأسر خلال الاقامة التي استغرقت خمسة أو ستة أيام أمام المدينة وذلك بسبب فقدان الحذر الذي أظهره الحكام والقادة ، واضطرت في آخر الأمر للانسحاب باضطراب .

كانت شؤون مملكتنا قد عهد بالمسؤولية عنها إلى ميلون دي بلانسي ، ونشأ نتيجة لذلك عداوة خطيرة بين هذا النبيل وبعض نبلاء المملكة ، فقد كانوايحسدونه على سلطته ولم يتمكنوا من تحمل حقيقة أنه تم تجاهلهم ولم يستدعوا أبدا ، بينما انفرد وحده بجرأة مفرطة وبازدراء للآخرين دوما إلى جانب الملك وكان مستعدا لمساعدته . وقد أبعد الآخرون في هذه الأثناء عن الاتصال الشخصي مع الملك ، وسير ميلون أمور الدولة دون التشاور معهم .

وجاء في هذه الآونة كونت طرابلس إلى الملك وطالب بحضور النبلاء الذين حدث أن كانوا هنالك بالوصاية على المملكة . وأكد أنه بالفعل أقرب الأنسباء إليه والوصاية على الملك ، الذي كان مايزال

قاصرا ، حق شرعي له ، وقال إن هذا المنصب كان يخصه لأكثر من سبب واحد : ليس فقط لأنه كان من أقرب أنسباء بلدوين ، بل أيضا لأنه كان أغنى الرعايا المخلصين للملك وأقواهم(٣٠٤) وأضاف سببا ثالثا مقنعا جدا وهو أنه عندما تم أسره كان قد أمر من السجن نفسه شعبه المخلص ، بناء على تعهدهم له بالوفاء ، أن يسلموا كافة أراضيه وحصونه وقلاعه إلى الملك عموري والد هذا الغلام وأن يضعوا كل شيء تحت أوامره ورعايته الملكية ، وعلاوة على ذلك كان قد أضاف أمرا نهائيا وهو إذا كان مصيره كرجل سينهي حياته في السجن ، فقد عين الملك المذكور آنفا كوريثه الوحيد بحكم كونه أقرب أنسبائه إليه ، وطالب تقديرا لجميع هذه الخدمات أن يأتي الوفاء إليه بسبب الشرف لابسبب أي أمل في تحقيق امتياز مستقبلي ، وتأجل الرد على مطالب الكونت هذه بسبب أن الملك لم يكن حوله في ذلك الوقت سوى عدد قليل من نبلاء المملكة الذين يمكن أن يستشيرهم ، فسيتم استدعاؤهم ومشاورتهم في وقت موائم وبسرعة حسبما هو ممكن بشكل عام حيث ستقدم بمعونة الله إجابة مناسبة على جميع هذه المسائل ، وعاد الكونت إلى بلاده بعد استلامه هذه الاجابة ، وأيد الناس جميعا تقريبا قضية الكونت ، وكان من بين مؤيديه من النبلاء كل من همفري دي تيرون كافل المملكة وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا وجميع الأساقفة

٤ – مقتل مليون دي بلانسي في عكا .موت فريدريك رئيس أساقفة مدينة صور .

كان ميلون دي بلانسي هذا الذي كنا نتحدث عنه ، رجلا نبيلا من شامبين فيما وراء الجبال ، من بلاد هنري كونت تروييز ، وكان على علاقات حميمة جدا مع قريبه الملك عموري الذي جعله قهرمانا لمملكته . وعند وفاة همفري الأصغر ابن همفري أوف تيرون قدم الملك عموري ستيفني أرملة همفري المتوفى وابنه فيليب صاحب نابلس إلى ميلون كزوجة له . وكان ميلون بفضل زوجته سيدا على

وادي عربة ، أي على المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن التي تدعى عموما باسم الكرك ، هذا وكانت ستيفني قد أنجبت طفلين من زوجها السابق وهما ابن وابنة .

كان ميلون كما تم ذكر ذلك ، قد استغل الصداقة الحميمة التي كان قد نعم بها مع والد الملك الحالي واحتقر نبلاء المملكة حتى الذين كانوا أعظم منه ، ولم يكن حذرا في تصرفاته ، وكان رجلا متكبرا بل متعجرفا ثملا بالعبارات الطنانة مع نفسية وقحة بشكل مفرط ، ولكي يقلل من حسد الآخرين بطريقة من الطرق استخدم ذريعة الحسد بشكل مفرط بالوضوح ومبالغ فيه . وحرض رجلا يدعى روهارد كان شحنة قلعة القدس ، وكان رجلا عاديا جدا وعاجزا تماما ، وتظاهر ميلون أنه يطيع أوامر هذا الرجل وكأنه كان خاضعا له ، وكان الأمر في الواقع على العكس تماما ، فقد كان أحدهما يحمل لقبا رفيعا فارغا من الجوهر بينما قام الآخر تحت ذلك المظهر بإدارة أمور المملكة كما كان يحب تماما ، وعلى الرغم من أنه كان يتصرف بإهمال ويتحدث بطيش فقد جعل شؤون مسائل المملكة

تسير وفق رغباته على الرغم من الآخرين . ورتب جميع القضايا ووزع جميع الامتيازات حسبما أراد مثيرا بذلك كراهية شديدة ضده شخصيا ، ووصلت الأمور في آخر الأمر إلى مأزق كبير بحيث تم تحريض بعض الرجال بصورة سرية للتآمر على حياته .

واستهان بهذا الأمر عندما نقل إليه واستمر يتصرف كالمعتاد دون أن يتخذ تدابير وقائية موائمة . وفي أحد الأيام طعن بينما كان مقيما في مدينة عكا عند الغسق في الشارع العام وتوفي بعدما عانى من معاملة شائنة ومخزية ، واختلف الرأي بين الناس بخصوص مقتله حيث قال بعضهم إنه قتل بسبب الولاء المخلص الذي كان قد أظهره للملك ، وخلافا لذلك فقد ادعى آخرون أنه كان يتخذ بصورة سرية الخطوات للاستيلاء على السلطة الملكية ، وقيل إنه كان قد أرسل

رسلا إلى اصدقائه ومعارفه في فرنسا حاثا إياهم للقدوم بكل سرعة إلى المملكة حتى يتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على المملكة ، لكنني لم اتحقق بشكل قاطع فيما إذا كانت هذه الآراء صحيحة ، هذا ومن المعروف تماما أن بالين صاحب يافا أخو روهارد المذكور انفا كان قد ارسل إلى المناطق الواقعة فيما وراء البحر مع رسائل وهدايا ملكية وأن عودته كانت تنتظر يوميا .

حدث في هذه الآونة لا بالفعل في الثلاثين من شهر تشرين الأول هذا نفسه ان توفي سلفنا فريدريك (٣٠٥) رئيس اساقفة صور ، وكان رجلا من مرتبة عالية جدا في نسبه ، وكان ذلك في مدينة نابلس حيث كان قد احتجز فيها لفترة من الزمن بسبب مرض خطير ، ونقلت جثته بجنازة وطقوس لائقة الى القدس ودفن في كنيسة هيكل الرب حيث كان شماسا نظاميا في كنيستها.

٥ ـ وصف كونت طرابلس. والأجداد الذين انحدر منهم وكيف تولى نيابة الملك. تعيين مؤلف هذا التاريخ مستشارا ملكيا.

عاد ايضا في هذه الآونة كونت طرابلس ليتلقى ردا على المطلب الذي كان قد قدمه بخصوص النيابة ، وذلك بعدما اجتمع نبلاء المملكة ورجالات الكنيسة بحضور الملك في القدس للتشاور ، وكرر الكونت مطلبه ثانية واكد على دعواه ذاتها . وبعد دراسة استمرت لمدة يومين متتاليين ، وافق الملك أخيرا بناء على رضا من الجميع ، وقلد الكونت وسط صيحات الابتهاج العالية للناس في كنيسة قبر المسيح جميع سلطات المملكة وحكمها وجعله في المرتبة الثانية للملك فقط ، وبما اسم الكونت جلب إلى الشهرة في محصلة الأحداث التي نحن بصددها ، يبدو هذا وقتا موائما لنسجل من اجل فائدة الأجيال القادمة الحقائق التي كنا قد علمناها بتيقن حوله ، وليس في نيتنا ان نكتب مديحا ، غير أننا سنعلن عما كان وعن نسبه بقدر ما يسمح السياق المحدد بالضرورة لتاريخ موجز .

يعود أصل الكونت ريموند ، موضوع بحثنا ، حسب النسب إلى ريموند الأكبر ، ذلك الذي كان قائدا هاما في جيش الرب الذي تمت باعماله ومآثره الحماسية إعادة مملكة الشرق إلى خدمة المسيح ، وسجلت هذه الحقائق بدقة عندما كنا نتعامل مع الزعماء الأوائل الذين قدموا في الحملة الأولى ، وكان للكونت ريموند الأكبر ، ذي الذكرى النفيسة ، ولد يدعى برترام الذي أصبح كونتا لطرابلس بعد وفاة أبيه واغتيال وليم جوردان وكان ابن أخت الأخير . وكان لبرترام ابن يدعى بونز نجح إثر وفاة والده بالوصول إلى الحكم بحق وراثي ، وتزوج من سيسيليا أرملة تانكرد وابنة فيليب ملك فرنسا وقد أنجب منها غلاما يدعى ريموند خلفه في حكم طرابلس وتزوج ريموند من هودرينا ابنة بلدوين الملك الثاني للقدس ، وهي التي أصبحت أما لريموند هذا الذي نتحدث عنه الآن ، وخلف ريموند هذا أباه ككونت لطرابلس بعدما قتل ريموند الأكبر عند باب المدينة في طرابلس في هجوم مفاجيء شنته الحشيشية ، ولذلك فقد كان هذا الكونت من جانب والدته ابن خال الملك عموري وبلدوين لأنهما كانا ابنين لأختين ، لكنه كان من منزلة أدنى من ناحية والده ، وكانت سيسيليا ، المذكورة منذ لحظات ، جدته من ناحية والده ، وأختا للملك فولك والد الملك بلدوين وعموري ، أختا له من أمه وليس من أبيه ، لأن أمهما التي كانت أخت أموري مونتفرات كانت زوجة لفولك الأكبر كونت أنجو وقد تركت زوجها بعد مولد فولك الأصغر وهربت إلى فيليب ملك فرنسا ، الذي أنجبت منه سيسيليا هذه وأبناء آخرين كثيرين : وكان فيليب ـ مفتونا بالكونتس برتراد ـ قد طرد ، خلافا لقانون الكنيسة الملكة زوجته الشرعية التي كان قد أنجب طفلين منها هما لويس وكونستانس ، وهكذا ، كان الكونت والملكين المذكورين مرتبطين من كلا الجانبين .

كان الكونت رجلا صاحب بنية نحيفة ، وكان هزيلا للغاية متوسط الطول ، وله بشرة داكنة اللون ، وكان شعره أسود مسبلا إلى حد ما ، وكانت له عينان ثاقبتان وكتفاه منتصبتان جدا ، وكان حازما وقويا في العمل ومعروفا برباطة الجأش والحكمة ، وكان معتدلا في

تناول كل من الطعام والشراب بشكل يفوق كثيرا الرجل العادي ، وأبدى سخاء نحو الغرباء إلا أنه لم يكن سخيا جدا نحو شعبه ، كان متعلما بشكل جيد إلى حد ما وهو إنجاز كان قد حققه عندما كان أسيرا لدى العدو ، إلا أن ذلك تم على حساب بذل جهد كبير وقد ساعده في ذلك حدة ذهنه الطبيعية (٣٠٦) ، وبحث بتلهف مثل المك عموري عن المعرفة المتضمنة في الأعمال المكتوبة ، وكان لايعرف التعب في طرح الأسئلة اذا ماحدث ووجد شخص كان قادرا برأيه على الاجابة.

وتزوج في العام ذاته ، الذي باشر فيه إدارة المملكة ، من اشيفا وكانت امراة ثرية جدا وأرملة لووالتر أمير طبرية الذي أنجبت منه أطفالا كثرا ، إلا انها ، ولسبب مجهول ، لم تنجب أي طفل من الكونت بعد زواجها منه . ويقال إنه أحبها وابناءها برقة وكأنها كانت قد ولدتهم جميعا له .

ولنعد الآن بعد هذا الاستطراد القصير إلى السياق الرئيسي . وكان رالف ، ذو الذكرى النفيسة ، أسقف بيت لحم ومستشار المملكة قد توفي خلال الصيف السابق (٣٠٧) ، ولكي يكون هنالك شخص مسؤول عن المراسلات الملكية فقد عينني الملك في ذلك المنصب بناء على نصيحة نبلائه ، ومنحني مرتبة مستشار

٦ - استيلاء صلاح الدين على مدينة دمشق والأجزاء الأخرى من تلك المنطقة تلبية لأهالي دمشق .و كونت طرابلس يزحف ضده لمقاومة خططه .

وفي هذه السنة استدعى أعيان دمشق البارزين سرا صلاح الدين ابن نجم الدين الذي خلف عمه شيركوه في مملكة مصر وكان الملك الصالح بن نور الدين حاكمهم الشرعي قد جعل مقره في مدينة حلب ، وأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف

الدين ، وأسرع عبر الممرات الصحراوية لسورية ووصل إلى دمشق ليستولي على المملكة ، وتقدم بعد مضي بضعة أيام ، وبعد أن استلم المدينة من سكانها ، ضمها إلى سورية المجوفة حيث أمل في وضع جميع مدن تلك المنطقة تحت حكمه دون حرب ، وثبت أن هذا الأمل كان صحيحا ، حيث استسلم سكان تلك المدن خلال وقت قصير له طوعا ، وفتحوا أبواب مدنهم له ، وهكذا ، وخلافا للولاء الذي كان مدينا به لسيده وحاكمه ، استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الاقليم أي : مدينة هيليوبولس المسماة بهذا الشكل باللغة الاغريقية والمعروفة حاليا باسم ملبك أو بعلبك باللغة العربية ، ومدينة حمص المسماة عموما باسم كاميلا وحماه وشيزر المسماة عادة باسم قيسارية الكبيرة ، وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة ، إلا أن ذلك لم يحدث بالمصادفة .

هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في ذلك الجزء من المنطقة ، وكان الملك قد تلقى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل ، عندما توشك تغيرات هامة أخرى أن تحدث . وتقرر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء ، وبموافقة الجميع أنه ينبغي على الكونت أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدم صلاح الدين ، وكان هذا اجراء حكيما ، لأن أية زيادة لقوة صلاح الدين كانت سببا للريب في نظرنا ، وبدا كل شيء زاد من سلطته بأنه مضر تماما بمصلحة المملكة ، لأنه كان رجلا حكيما في الرأي وشجاعا في الحرب وسخيا بشكل يفوق الحدود ، ولهذا السبب بالذات ، ارتاب به نبلاؤنا الذين كان لديهم بصيرة أشد ، فحتى في أيامنا لا توجد وسائل أفضل يستطيع الملوك بواسطتها أن يكسبوا قلوب رعاياهم ، أو قلوب سواهم أكثر من اظهار الكرم والسخاء نحوهم ، وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتي من الأمراء ، ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية لأن صلاح الدين

إذا زاد في حجم ممتلكاته ، ووسع امبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة ، بقوات كبيرة ، ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من قبل ، هذا وكانت جميع المحاولات للتصدي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها ، ونرى اليوم (٣٠٨) بعيون باكية ان مخاوفنا قد تحققت ، لأنه قد نهض بقوة جبارة ضدنا برا وبحرا حيث ليس لدينا امل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين.

وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد ، ليس بابداء بعض اللطف نحوه إكراما له ، بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خطط صلاح الدين وتقليل فعالية هجماته على المملكة .

٧ - لماذا أصبح العدو أعظم قوة في مواجهة المسيحيين

لا بد لي أن أستطرد في هذه المرحلة فأخرج عن مجرى روايتي بعض الشيء ، ليس لأطوف بلا هدف ، بل لأوضح شيئا قيما ، فالسؤال المطروح دائما ، وبعدل تام هو لماذا قاوم آباؤنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عددا ، قاوموا دائما بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير ، ولماذا كانت دوما قوة صغيرة تبيد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو ، مما جعل مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب ، وهكذا تمجد الرب بأعمال آبائنا ، ويقابل هذا أننا نجد رجالنا في أيامنا غالبا ما قهروا من قبل قوات أدنى منهم وأقل ، وفي الواقع ، كانت جهودهم عقيمة وغالبا اضطروا للاستسلام عندما حاولوا القيام ببعض المآثر ضد أعداء كانوا أدنى قوة منهم .

ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون

للعون من الرب ، خالق كل شيء أن السبب الأول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالا متدينين ويخافون الرب ، قد قـام مقـامهم الآن جيل شرير أبناء آثمون مزيفون للعقيدة المسيحية يتبعون سـبل جميع الأشياء المحرمة دونما تمييز ، وهم أشبه ، أو حتى أسوأ من الذين قالوا لربهم : « أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر »(٣٠٩) ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم وكأنما أثير سـخطه ، هؤلاء هم رجال العصر الحالي ، وخاصة القاطنون في الشرق ، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة سيقف عاجزا أمام هول المادة وضخامتها وسيبدو بالاختصار بأنه يكتب مقطوعة هجائية أكثر من أنه يصنف تاريخا(٣١٠)

ويبرز أمامنا بالمناسبة سبب آخر : لقـد اعتـاد الرجـال المبجلون الأوائل الذين قدموا في الأزمان السـابقة إلى بلدان الشرق تقـودهم الحماسة السـماوية والذين كانوا ملتهبين بـاندفاع روحـي نحـو العقيدة على النظام العسكري ، وكانوا مدربين على خوض المعـارك وكانوا معتادين على استعمال الأسلحة (٣١١) ، وعلى العـكس كان اهالي الشرق قد اصبحوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل ، ولم يكونوا معتادين على فن الحرب وغير مطلعين على قـواعد القتـال ، وكانوا مبتهجين في حالة كسلهم ، ولذلك ليس غريبا أن رجالا مقاتلين ، وإن كانوا قلة في عددهم ، قد تغلبوا على أعداد كبيرة وكان بإمـكانهم أن يتباهوا بتفوقهم بتحقيق شرف النصر ، لأنه في أمور كهـذه (كمـا يعرف أكثر مني الذين لديهم خبرة أكبر في الحرب) أن البـراعة في الأسلحة العائدة إلى ممارسة مستمرة وطـويلة تفـوز عادة عندمـا تتصدى لقوة غير مدربة ولدى تصديها لانعدام الاضرار .

ويفرض سبب ثالث ، ممـاثل في أهميتـه وفعـاليته ، نفسـه على اهتمامي : لقد كان فيما مضى لكل مدينة حاكمها الخـاص وإذا مـا تكلمنا حسب أسلوب أرسطو لم تكن هذه المدن معتمدة على بعضـها بعضا ، ونادرا ما تحركت بالبواعث نفسـها ، بـل ثـارت بـالواقع ببواعث معاكسة تماما في مرات كثيرة،هذا وأن تقاتل في المعركة ضد

أعداء لهم آراء مختلفة اختلافا شاسعا ومصالح متضاربة كثيرا ، خصوم يرتابون ببعضهم بعضا فيه مخاطر أقل ، وهكذا لم يستطع الذين كانوا يخافون من حلفائهم أكثر من خوفهم من المسيحيين أن يتحدوا بسهولة للتصدي للخطر المشترك ولا أن يسلموا أنفسهم لابادتنا . لكن الآن جلبت بإرادة من الله جميع الممالك المتاخمة لنا وصارت تحت سلطة رجل وقد حدث مؤخرا أن تمكن زنكي ، الوحش الذي كان يمقت الاسم المسيحي كما يمقت الوباء ، والذي كان أبا لنور الدين هذا الذي توفي منذ زمن قريب ، تمكن بالأمس القريب من الاستيلاء أولا بالقوة على ممالك كثيرة ثم استولى بكل قوة على الرها المعروفة أيضا باسم أديسا ، التي كانت ـ حتى داخل ذاكرتنا ـ الحاضرة الرائعة والبارزة للميدين ، لقد استولى على هذه المدينة مع جميع توابعها وقتل جميع المؤمنين المخلصين الذين عثر عليهم داخل حدودها .

ثم قام ولده نور الدين بطرد ملك دمشق من بلاده ، وحصل هذا بواسطة خيانة رعايا الملك له لا عن بذله أية شجاعة حقيقية ، لقد استولى على تلك المملكة لنفسه وأضافها إلى ميراثه الأبوي ، ثم استولى نور الدين هذا نفسه مؤخرا على مملكة مصر الغنية والقديمة بالمساعدة المواظبة لشيركوه وخصص نفسه بها بالطريقة التي تم سردها بشكل تام عندما بحثنا في فترة حكم الملك عموري .

وهكذا أصبحت كما ذكرت من قبل جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد ، وتنفذ أمر رجل واحد وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط ، وأن تحمل السلاح حتى على مضض لالحاق الضرر بنا ، ولا يوجد أحد يجرؤ على الانغماس في أية نزعة خاصة به أو أن يتجاهل ـ بغير إفلات من تعرضه للعقوبة ـ أوامر سيده الأعلى ، فصلاح الدين هذا الذي حصلنا على فرصة لنذكره مرارا ، والذي كان ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع ، يسيطر الآن على جميع هذه الممالك ، حيث كان القدر قد ابتسم له بلطف كثير ،

الفرسان قيل انها كانت قوية جدا ، وزحف ضد الخونة ليحمل العون إلى ابن أخيه .

كان هـذا الأمير العـظيم حـاكما لمدينة نينوى تلك المدينة القـديمة والمشهورة جدا ، والتي يقال إنها تحولت منذ زمن طويل إلى خـراب ورماد بسبب إنذار من النبي يوحنا ، ونشأت مكانها مـدينة جـديدة تحت اسم معدل جديد هو الموصل وذلك على مقـربة مـن تلك المدينة الأكثر قدما ، وقد بنيت من بقـايا نينوى القـديمة وهـي تـؤوي المنحدرين من المدينة السابقة وتحتفظ بالمنزلة المبجلة بكونها عاصمة إقليم أثور بأكمله ، ونصب الأمير لدى وصوله معسـكره في السـهل الواقع حول مدينة حلب .

كان صلاح الدين خلال هذا الوقت بدون أعمال ، وكان قـد حـاصر بصرى أهم مدن العربية الأولى وحاصر أيضـا مـدينة هيليوبـولس التي تدعى الآن عادة باسم بعلبـك حيث اسـتسلم له سـكان كلتـا المدينتين طوعا ودون حرب . ثم حاصر مدينة حمص المعروفة أيضـا باسم كاميلا .

سلم السكان الجزء السفلي من هـذه المدينة ودون أدنى تـأجيل ، حيث كان الذين بقوا مخلصين للملك الشاب قد انسحبوا إلى القلعـة التي كانت واقعة على هضبة مرتفعة بعض الشيء وكانت قد حصـنت بقوة فيما مضى ، وكانت مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن ، وتلقى صلاح الدين استسلام بعض المدن الأخرى على أيدي سـكانها ممـا كان واقعا في المنطقة المجاورة لهذا الاقليم ، وهي مدن حماه وشيزر وسائر المنطقة وصولا إلى مدينة حلب نفسها .

وأرسل اللاجئون المقيمون في قلعة حمص في هذه الأثناء رسـلا الى كونت طرابلس ، وإلى قواتنا التي كانت قد خيمت في الموقـع المذكور آنفا وكانت تنتظر على أمل أنه بحدوث هذا الاضطراب الهائل لا بـد أن هذا الطرف أو الآخـر سـيستدعيهم وفـق الشروط المرغوبـة ،

وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب ومن الذوعية الممتازة المعروفة باسم الابريز (٣١٢) وتزود اقاليم اخرى بمجموعات لاتحصى من الفرسان والمقاتلين ، رجال متعطشون للذهب ، لأنها مسألة سهلة بالنسبة للذين يملكون كميات وفيرة من هذه السلعة أن يجتذبوا الجند إليهم ، ولنكمل الآن قصتنا (٣١٣)

لقد بدا مرغوبا في رأي جميع الحاضرين ، كما ذكرنا ، وجوب بذل كل جهد ممكن لمقاومة هذا الرجل الرائع في تقدمه السريع ـ من خلال انتصاراته المتتالية ـ نحو القمة العليا لطموحه ، وكان الشعور العام أنه قد يبرهن وهو يزداد قوة أكثر فأكثر أنه العدو الأشد خطرا وإخافة بالنسبة لنا ، وهكذا ، جمع الكونت العساكر من جميع المناطق المجاورة وأسرع بالتوجه إلى منطقة طرابلس بمرافقة نبلاء المملكة ، وتمركز في الاقليم المعروف باسم بلاد الخليفة وأقام معسكره بالقرب من مدينة عرقة .

٨ ـ حاكم الموصل يقدم بسرعة لمساعدة ابن اخيه . انتصار صلاح الدين عليه و استيلائه على المنطقة بأسرها . الكونت يعقد معاهدة معه . تسلمه الرهائن .

عندما كانت هذه الأشياء تقع في وسطنا ، علم عم ابن نور الدين ، الذي كان أميرا قويا جدا يدعى (قطب الدين) ، وواحدا من أقوى الأمراء بين الشرقيين المنحدرين من الأصل الفرثي ، بوفاة اخيه وبكل الظروف اللاحقة لها ، وكان صلاح الدين قد تمرد الآن على سيده الشرعي بتحد واضح لقوانين الانسانية ، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة ، وبإنكار للمساعدات التي كان قد أغدقها عليه والد ذلك الفتى ، وعبر قطب الدين نهر الفرات بعدما جمع قوة كبيرة من

وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتوسلوا إليهم للقدوم دون تأجيل وأن يعدوهم أن أية مساعدة يمكن أن يقدموها ضد عدو مخيف كهذا ستلاقي مكافأة لائقة .

وعلاوة على ذلك ، كان يوجد في هذه القلعة ذاتها الرهائن التي كان الكونت قد أعطاها لنور الدين ، والد الملك الشاب ، مقابل إطلاق سراحه من الأسر ، وذلك كضمان لمبلغ تصل قيمته إلى ستين ألف قطعة ذهبية على الأقل ، كما كان يحتجز فيها بعض الرهائن التي قدمها رينو صاحب صيدا لاسترداد أخيه يوستاس .

أسرع المسيحيون بالزحف نحو القلعة مع جميع قواتهم بكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إنجاز ترتيب ما يتمكنون بواسطته من الحصول بوعد إطلاق سراح هؤلاء الأسرى من قائد القلعة التي كانوا محتجزين فيها ، مقابل إمكانية تقديم المساعدة ، غير أنهم اكتشفوا أنه لا يمكن الاعتماد أبدا على أقوال الكفرة ، حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفع الحصار بوساطة جهود الأمير المذكور آنفا ، ولهذا عاد المسيحيون أخيرا إلى المعسكر الذي كانوا قد غادروه قبل فترة قصيرة ، وذلك بعد دراسة دقيقة للموقف ومن زوايا متنوعة .

وزادت حقيقة أن المسيحيين قد انسحبوا وكأنهم غاضبون من عجرفة صلاح الدين ، وبدأ يقترب من مدينة حلب واضعا أهمية كبيرة على انسحابهم ، وضايق هنالك بسلسلة من الهجمات المتكررة قوات الزعماء وحاول إثارتهم للقتال ، والتقت القوات في آخر الأمر بعد تحديات كثيرة من هذا القبيل في معركة في غاية العنف تم خوضها من مواقع متلاحمة ، وقد تغير فيها تيار المعركة في آخر الأمر لمصلحة صلاح الدين ، واضطر الموصليون للاستسلام ، ويقال إن بعض الناس من شعبهم قد خانوهم بعدما أخذوا رشوات كبيرة من المال ، وعاد الآن صلاح الدين إلى حمص واستولى على قلعتها مثلما كان قد استولى على المدينة من قبل .

وأرسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت أن لا يعترض تقدمه الظافر بل أن يسمح له في الصراع منفردا مع ابن نور الدين والآخرين الذين كانوا قد أتوا لمساعدته ، وخشية أن يرفض هذا الاقتراح بازدراء ودون تعويض لائق ، فقد عرض أن يطلق سراح رهائن الكونت ورهائن رينو دون دفع للمال ، فوافق الكونت على هذا الاقتراح وأعيدت الرهائن كما اتفق على ذلك في التسوية وصرف النبلاء الذين شاركوا في هذه الحملة بسخاء لائق ، ثم جرى التخلي عن المعسكر وعاد الجميع إلى ديارهم .

يقال إن همفري أوف تيرون كافل المملكة ، كان مرتبطا بروابط الصداقة القوية مع صلاح الدين . وكان عمله ضارا بلا ريب بمصالحنا ، حيث نال هذا الأمير ودنا ، في حين كان ينبغي مقاومته إلى الحد الأقصى خشية أن تزداد وقاحته ضدنا مع ازدياد قوته ، ذلك أن قوته المتزايدة كانت تضر دوما بالمسيحيين وتدفعه للتجرؤ على الاستخفاف بنا .

وهكذا ، فإن القوات التي كانت قد غادرت المملكة في حوالي الأول من شهر كانون الثاني عادت إلى الوطن ثانية في حوالي الأول من شهر أيار (٣١٤)

٩ ـ موت مينارد أسقف بيروت . ترقية مؤلف هذا التاريخ الى مرتبة مطران لمدينة صور .

حدث في هذه الآونة ، أي الخامس والعشرين من شهر نيسان ، أن توفي مينارد أسقف بيروت صاحب الذكرى السعيدة وحدثت وفاته في مدينة صور بعد مرض مزمن استمر لفترة من الزمن ، فلتنعم روحه بالسلام .

وكانت الكنيسة في صور الآن بلا رئيس لها وذلك منذ سبعة أشهر

متتالية ، هذا وقد استدعيت في هذا الشهر(٣١٥) ذاته بناء لرغبة جماعية من رجال الدين والناس وبتأكيد الملك أيضا كما هو مألوف ، ومن خلال معاناتي في ذات الرب ، أكثر من أي ميزة من ميزاتي ، دعيت لأتولى المسؤولية في تلك الكنيسة ، وتلقيت بعد مضي عشرة أيام أي في الثامن من شهر حزيران وبمشيئة الرب هبة الترسيم على الرغم من أنني لا أستحقها بأكملها وكان ذلك في كنيسة المسيح على يدي أمالرخ بطريرك القدس .

١٠ – الملك يغزو أراضي الدمشقيين و يخرب المنطقة . موت هرنديسيوس رئيس أساقفة قيسارية .

وصلت في هذه الآونة بينما كان صلاح الدين منشغلا بإنهماك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب أخبار كان مفادها أن منطقة دمشق ، التي كانت خالية من جيش يحميها وقائد يرعاها ، معرضة للنهب وفريسة سهلة لأي أذى يمكن لأي عدو أن يلحقه بها بموجب حق الحرب ، وجمع الملك بلدوين لدى تلقيه هذه المعلومات قوة من الفرسان وعبر الأردن ، ومر خلال الغابة الواقعة بالقرب من مدينة بانياس والتي تشتق اسمها منها ، ووصل إلى سهل دمشق بعدما ترك سلسلة جبال لبنان المشهورة على يساره ، وكان ذلك في زمن الحصاد ، وتفرقت قواتنا فوق السهول وتجولت بحرية في جميع الاتجاهات ، وأودعت إلى السنة النيران المحاصيل النامية والبيادر المجمعة في الحقول وذلك بالاضافة إلى الغلال التي كانت مخزنة في مخازن الحبوب ، هذا وكان المزارعون الذين أخطروا بمقدمنا ، قد انسحبوا مع زوجاتهم وأطفالهم إلى أمكنة محصنة بشكل أكثر قوة ، وهكذا تقدمت قواتنا وصولا حتى داريا بعدما جعلت المنطقة بأسرها تحت سيطرتها ، وداريا هذه هي قرية في السهل الواقع في جوار دمشق وتقع على بعد نحو أربعة أميال من تلك المدينة ، وتقدمت قواتنا من هناك إلى عين الجر التي تقع عند سفح جبل لبنان ، وقد أعطت المياه الصافية المتدفقة من تلك المرتفعات الموقع

اسم منزل السرور ، واستولت قواتنا على هذا الموقع بالقوة على الرغم من المقاومة الشجاعة لسكانه ، ثم رحلت القوات ناقلة معها مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين ، ووصلت بعد عدة أيام إلى الوطن سالمة وآمنة .

وتوفي في هذه الآونة نفسها هرنيسيوس ، رئيس أساقفة قيسارية صاحب الذكرى الطيبة ، واختير هرقل ، رئيس شماسة القدس ، خلفا له ورسم بشكل لائق .

١١ ـ الملك يجتاح بلاد العدو من جديد ويخرب واديا يدعى البقاع. تحرير كل من ارناط وجوسلين خال الملك من قيود العدو.

استدعى الملك بلدوين الرابع في العام الثاني من حكمه ، وفي الأول من شهر آب (٣١٦) زعماء المملكة وذلك بينما كان صلاح الدين ما يزال منشغلا أمام مدينة حلب ، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد ، فعبر صيدا ثم صعد الجبال التي تقع بين أراضينا وأراضي العدو ووصل إلى المصارة وهو موقع ينعم بتربة خصبة وترويه الأنهار بشكل جيد ، وفي الواقع ، هو مزود تقريبا فيما يبدو بكل ما هو موائم زمانيا ، ونزل من هناك مجددا إلى واد يدعى البقاع حيث عثر على البلاد الممتلئة بالحليب والعسل حسبما نقرأ في الكتب المقدسة ، ويعتقد بعضهم أن هذه هي المنطقة التي كانت تسمى في العصور القديمة باسم ايطورية والتي اخبرنا عنها في إنجيل لوقا أن فيليب بن هيرارد الأكبر كان حاكما لها ، كما كان حاكما أيضا لبلاد تراخونيتس ، وكانت منذ زمن قديم جدا ربما خلال أيام ملوك اسرائيل تسمى باسم غابة لبنان لأن الوادي امتد إلى سفح جبال لبنان ، وهذه المنطقة جذابة كثيرا بسبب تربتها الخصبة ومياهها الصحية والسكان الكثر في دساكرها الكثيرة ، ومناخها المستساغ ، وتظهر في الجزء السفلي من هذا الوادي مدينة تحاط حتى اليوم بأسوار قوية حيث تعطي أبنيتها التي تعرف الآن باسم عين الجر دلائل كثيرة عن عظمتها في الأزمان الماضية .

يعتقد بعض طلاب تاريخ العصور القديمة بأن هذه هي تدمر ، التي كانت فيما مضى مستعمرة فينيقية مهيبة والتي أورد يوليبيان الصوري ذكرها في « المختصر » الجديد في فصل «الاحصاء»(٣١٧)

بدأت قواتنا ساعة وصولها إلى هذا الموقع باجتياح المنطقة بأسرها دون عائق وأشعلت النار في كل شيء ، ولم يمنعهم أحد لأن السكان كانوا قد هربوا إلى الجبال ، حيث لم يكن هنالك أي طريق يستطيع الجنود عبوره ذلك أنهم كانوا قد أخطروا باقترابنا ولذلك دفعوا بالقسم الاكبر من قطعانهم وحيواناتهم إلى الغياض الواقعة في منتصف الوادي حيث كان المرعى خصبا جدا .

تقدم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده ، بعدما عبر سهل جبيل الواقع قرب القلعة المعروفة باسم المنيطرة حسب ترتيب مسبق ، إلى المنطقة المجاورة لبعلبك الواقعة في الوادي نفسه حيث شرع في إحراق كل شيء ، وأسرع شعبنا لدى سماعهم بهذا النبأ بتلهف في ذلك الاتجاه ، وبما أن الكونت كان راغبا بشكل مماثل في مقابلتنا فقد وحد الجيشان قواتهما في منتصف الوادي تقريبا .

كان شمس الدولة ، أخو صلاح الدين ، مقيما في دمشق كحاكم لها ، وجمع قواته حالما بلغه هذا النبأ وبذل بمساعدة سكان المدينة جهدا للمقاومة ، ونظم صفوفه وعبأها بترتيب المعركة واستعد ليزحف نحونا ، كما رتبت قواتنا كتائبها أيضا بترتيب جيد وتقدمت بروح شجاعة نحو القتال ، وحارب الجانبان بشجاعة ، وقتل الكثيرون وجرح عدد أكبر ووقعت أعداد كثيرة في الأسر . إلا أنه تم في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار ، ونجا شمس الدولة مع عدد قليل من أتباعه وهرب إلى المنطقة الهضبية المنحدرة . وعاد المسيحيون محملين بالمغانم من العدو مع قطعان المواشي ومقدار ضخم من المغانم ، وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغل في الغياض للنهب مع أنهم لم يكونوا

مطلعين على الطرقات ، ولم يعرفوا خبر الانسحاب المفاجيء للقوات المسيحية .

وهكذا ، عاد الملك وجنوده بإرادة الرب إلى مدينة صور بسلامة تامة . وجلبوا معهم مغانم ثمينة من كل نوع بما فيها قطعان الحيوانات وكميات كبيرة من الأغنام كبراهين بارزة على قوتهم الظافرة .

وقفل كونت طرابلس ، المحمل أيضا بغنيمة ثمينة ضخمة ، مسرورا مع قواته وعاد إلى ممتلكاته سالكا الطريق نفسه الذي كان قد قدم بواسطته .

وعاد خلال ذلك العام نفسه (٣١٨) ارناط والذي كان قد ورث بواسطة زواجه من كونستانس ارملة ريموند ، امير انطاكية ، تلك الامارة ، وحصل على اطلاق سراحه عندما دفع اصدقاؤه فدية كبيرة وبعد عدة سنوات من الأسر الصعب في حلب ، وكان معه جوسلين بن جوسلين كونت الرها وخال الملك الذي أنقذه أيضا من السجن وأعيد إلى الحرية بفضل الجهود المستمرة للكونتس أغنس زوجة رينو صاحب صيدا ووالدة الملك .

كما تلقى في ذلك العام نفسه وفي اليوم الثاني من شهر أيار كل من أودو الأسقف المنتخب لصيدا والذي كان شماسا للكنيسة في صور ، وريموند الأسقف المنتخب لبيروت ، تلقيا هبة الترسيم في الكنيسة في صور من خلال إدارتنا لها .

١٢ – إمبراطور القسطنطينية يتعرض للهزيمة بشكل مخز في قونية

واجه مانويل امبراطور القسطنطينية صاحب الماضي الرائع

والذكرى اللطيفة في المسيح ، وهو الذي كان الجميع تقريبا قد استفادوا من خدماته ونالوا من كرمه وسخائه غير المحدود ، واجه أيضا في هذه الآونة نفسها كارثة خطيرة في قونية ، فقد كان يحاول بورع جدير بالثناء أن ينشر الاسم المسيحي بمحاربة عرق الأتراك المرعب وزعيمهم الشرير سلطان قونية . غير أنه عانى هنالك وبسبب آثامنا من مذبحة كبيرة ، ولم تشتمل هذه المجزرة على المجموعة الشخصية لأتباعه فقط ، بل شملت أيضا القوات الأمبراطورية التي كان يقودها معه بأعداد كبيرة جدا وبشكل يكاد يفوق التخيل البشري ، وترافق الاشتباك بخسارة ضخمة في الجند كان بينهم بعض أقاربه البارزين الجديرين تماما بذكر خاص ، فقد كان بينهم ابن أخيه يوحنا البروتوسيباستوس وكان رجلا سخيا مشهورا وصاحب كرم ملحوظ وهو الذي كان الملك عموري قد تزوج من ابنته ماريا ، فقد قتل عندما كان يبدي مقاومة شديدة أمام العدو وبعدما أصيب بجراحات كثيرة بالغة ، ونجح الأمبراطور نفسه في جمع معظم جيشه ووصل إلى بلده سالما جسديا ومنهكا ذهنيا إلى حد بعيد بسبب الكارثة المشؤومة.ويقال إن هذه الكارثة نشأت إلى حد ما عن طيش الضباط الامبراطوريين الذين كانوا مسؤولين عن الفرق العسكرية وليس بسبب قوة العدو ، لأنهم حشروا أنفسهم بإهمال وباندفاع في الأماكن الضيقة الخطيرة التي كان العدو قد استولى عليها مع أنه كانت هناك طرق مفتوحة وواسعة ومهيأة بشكل جيد لمرور الجيش ولنقل كتلة الأمتعة ، ومختلف المعدات التي قيل إنها كانت تفوق التقدير ، وقد استحال في ظل ظروف من هذا القبيل إبداء المقاومة ، ولم يكن هنالك أية فرصة لتغيير المعطيات تغييرا تاما ضد العدو ، ويقال إن الأمبراطور حمل منذ ذلك اليوم وبشكل مؤثر بعمق على فؤاده ، ذكرى تلك الكارثة المميتة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا ابتهاج الروح الذي كان صفة له ، ولم يبد نفسه مبتهجا أمام شعبه مهما توسلوا إليه ، ولم ينعم قط طوال حياته ، بالصحة الجيدة التي كان يمتلكها قبل تلك الكارثة بدرجة رائعة جدا.

وبالاختصار ، لقد انهكته دوما ذكرى تلك الكارثة لأنها ظلت ماثلة

امامه الى درجة انه لم ينعم أبدا ثانية بهدوء الذهن او براحة النفس المألوفة (٣١٩)

١٣ ـ وصول وليم الاصغر ، مركيز مونتفرات الى سورية وزواجه من اخت الملك .

وفي العام الثالث لحكم بلدوين الرابع وصل الماركيز وليم ، الملقب بالسيف الطويل (٣٢٠) ، ابن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات الى ميناء صيدا مع بداية شهر تشرين الأول ، وذلك بدعوة من الملك وجميع نبلاء المملكة المدنيين والدينيين ، وتزوج من الأخت الكبرى للملك خلال اربعين يوما من وصوله ، وكان هذا الزواج قد تم ترتيبه في العام السابق في الوقت الذي دعي فيه وليم للقدوم لهذا الغرض ، وقد تم تأكيد هذا بيمين اداه الملك وجميع النبلاء بشكل مؤكد ومهيب ، وتلقى وليم مع زوجته مدينتي يافا وعسقلان البحريتين مع توابعهما والمقاطعة بأسرها أيضا بموجب الاتفاق المعقود حول ذلك في تلك الآونة ، غير أن بعضهم عارض هذا الاجراء ولم يترددوا في التعبير عن معارضتهم علانية ، وكانوا بين الذين سبق أن وافقوا على الدعوة التي وجهت لوليم دون إعطاء المسألة الاهتمام الكافي ، وقد غيروا آراءهم الآن كما هو مألوف بالنسبة للطبائع البشرية المتبدلة والمتقلبة .

كان الماركيز طويلا بعض الشيء ، وشابا وسيما شعره اشقر ، وكان سريع الغضب بشكل مفرط غير أنه كان في غاية الكرم وله مزاج متحفظ وشجاعة ورجولة . ولم يخف أبدا أية غاية بل أبدى علانية تماما ماكان يفكر به في ذهنه ، كان مغرما في تناول الطعام وموقفا نفسه تماما على الشرب ، ولكن ليس الى درجة الحاق الضرر بعقله . وكان قد تدرب على استخدام السلاح منذ حداثة سنه واشتهر بتمرسه في فن الحرب ، وكانت منزلته الدنيوية ممجدة ، ولم يتمكن في الواقع الا قلة من محاكاته إن ادعينا أن له نظراء ، وكان والده خال لويس ملك فرنسا ، وكانت والدته أخت

كونراد الامبراطور الشهير للرومان ، وعمة لفريدريك الذي يدير الامبراطورية الرومانية بقوة بعد وفاة عمه اللورد كونراد صاحب الذكرى المشهورة ، و هكذا ، كان الماركيز مرتبطا بهذين الملكين البارزين بالدرجة نفسها من القرابة .

ولم يكن قد انقضى الا ثلاثة أشهر تقريبا على زواجه عندما أصيب بمرض خطير ، وقد كابد الآلام لقرابة شهرين بدون توقف وقد توفي في شهر حزيران التالي في الوقت الذي كان الملك فيه مريض جدا في عسقلان وقد خلف زوجته حاملا ونقلت جثته الى القدس ودفن بأبهة عظيمة في ردهة كنيسة دار الداوية والى اليسار من المدخل ، وقد تراس القداس وليم الصوري مؤلف هذا الكتاب (٣٢١) .

وتزوج في هذه الآونة همفري أوف تيرون كافل المملكة ، من السيدة فيليبيا ، وكانت ابنة ريموند أمير انطاكية وأخت بوهيموند الثالث الذي يحكم الآن هذه الامارة ، وأختا لماريا امبراطورة القسطنطينية وكانت فيليبا قد تزوجت للمرة الأولى من أندرو نيكوس أحد أقرباء الامبراطور ، لكنه طلقها وتزوج سرا من ثيودورا أرملة الملك بلدوين وابنة أخيه (٣٢٢) ، وهو عمل مخز وفاحش على حد سواء . وما أن أخذ همفري هذا ، الذي كنا نتحدث عنه منذ لحظات ، فيليبيا الى بلاده حتى أصيب بمرض شديد ، كما أصيبت زوجته بداء خطير ماتت بسببه خلال بضعة أيام .

١٤ ـ وصول كونت فلاندرز الى المملكة وذلك بعد طول انتظار .في العام الرابع والشهر الثاني من حكم الملك بلدوين الرابع

في العام الرابع والشهر الثاني من حكم الملك بلدوين الرابع وصل في مطلع شهر آب الى عكا (٣٢٣) فيليب كونت فلاندرز ، الذي انتظر قدومه لفترة طويلة من الزمن ، فأمر الملك بأن يذهل على حمالة من

عسقلان الى القدس وذلك على الرغم من انه كان مايزال مريضا وارسل وهو في غاية البهجة عددا من باروناته ونبلائه الدينيين ليرحب بفيليب بمراسم لائقة ، ولدى وصول الكونت الى القدس ، حيث كان الملك مايزال مريضا بشكل خطير ، جرى تفويضه بجميع السلطات مع ادارة المملكة بأكملها بدون قيود وجاء ذلك بناء على نصيحة جماعية للسيد البطريرك ورؤساء الاساقفة والأساقفة ورؤساء أديرة الرهبان ومقدمي الداوية والاسبتارية وجميع أعيان الناس ورؤسائهم ، وتوجب أن يحصل على سلطة تامة على الأعلى والأدنى منزلة في السلم والحرب وفي الداخل والخارج ، وأن يمارس إرادته على الخزينة وعائدات المملكة (٣٢٤)

ورد الكونت بعد تداوله مع أتباعه أنه لم يكن قد حضر بهدف استلام أية سلطة ، بل لينذر نفسه للخدمة السماوية التي كانت الهدف لزيارته ، ولم يكن قد خطط ليحمل نفسه أية مسؤولية ، بل على العكس ، كان يرغب في أن يكون حرا ليعود الى موطنه عندما تستدعيه أموره الشخصية ، وليعين الملك اي انسان يختاره كحاكم في مملكته ، فهو نفسه سيطيع ذلك الانسان لمصلحة المملكة ، كما يطيع مولاه ملك فرنسا .

وبعدما أدرك الملك أن فيليب قد رفض تماما المنصب الذي كنا قد عرضناه عليه ، طالب عن طريق نبلائه أيضا وبشكل جاد في أن يوافق – على الأقل – أن يتولى قيادة جميع القوات المسيحية في الحملة التي كانت على وشك الانطلاق ، وكانت هذه الحملة قد تم ترتيبها منذ زمن طويل مع امبراطور القسطنطينية وتوسل الملك الآن اليه في أن يتولى العناية بمعارك الرب ضد المصريين ، ورد الكونت على هذا المطلب بالاجابة ذاتها التي قدمها من قبل .

وهكذا ، عين الملك أرناط ، الذي كان فيما مضى أميرا لأنطاكية ، نائبا للمملكة وقائدا عاما للجيش حسبما كان قد تم

ترتيب ذلك قبل وصول الكونت ، وكان أرناط رجلا صاحب إخلاص واضح ووفاء ملحوظ . وتوجب أن يؤول اليه واجب توجيه أمور المملكة وحكم جميع الأشياء بمساعدة الكونت إن لم يتمكن الملك من المثول شخصيا .

عندما نقل هذا الأمر الى الكونت أجاب أن وكيلا كهذا لايبدو ضروريا بالنسبة له ، وينبغي خلافا لذلك تعيين شخص ما ليتلقى شخصيا مجد هذه الحرب ، ان كان ذلك يرضي الرب ، أو ليتلقى عار الهزيمة اذا قضي الرب ذلك ، وينبغي اعطاء مملكة مصر الى قائد كهذا ، اذا وضع الرب تلك المملكة تحت سيطرتنا .

ـ وأجبنا على هذا ـ نحن الذين كان الملك قد أرسلنا : إن الملك لايستطيع أن يعين مسؤولا بسلطة كهذه دون ان يجعل الشخص ذاته ملكا ، حيث لم تكن تلك الفكرة فكرة الملك ولافكرتنا . وحيث كان هذا هو الحال ، فقد كشف الكونت في آخر الأمر النقاب عن التفكير السري لعقله ، ولم يحاول اخفاء الهدف الذي كانت جميع خططه موجهة نحوه ، وأشار إن الأمر كان غريبا لأنه لم يتطرق أحد معه للحديث في موضوع الزواج من قريبته سيبيلا .

ولدى سماعنا لهذه الأقوال ، دهشنا بمكر الرجل ولخططه الشريرة . لأن الكونت ، الذي كان الملك قد استقبله بلباقة بالغة ، كان يحاول الآن بتحد لقوانين حسن الضيافة وروابط الأسرة أن يحل نفسه محله .

١٥ ـ اتباع الكونت يؤثرون عليه بشكل مضلل ويقنعونه بعدم قبول اراء نبلاء المملكة .

من الضروري أن نستطرد قليلا في هذه المرحلة ، حتى يتمكن قراؤنا من أن يفهموا بشكل تام الخطة الشريرة التي كان الكونت

يحاول تنفيذها ، وتم الحصول على معلوماتنا حول هـذا الموضـوع ليس فقط من روايات فردية كثيرة ، بل من اعترافه ايضا .

كان هنالك رجل صاحب نفوذ كبير ، هو المحامي عن بيثيون قـد رافق الكونت في رحلته ، وكان قد جلب معه ابنيه اللذين كانا رجلين في مقتبل الشباب ، ويقال ان المحامي قد شرع ، بمسـاعدة الكونت وليم دي مـاندفيل ، الذي كان ايضـا مـوجودا في هـذه الرحلة نفسها ، بالضغط على فيليب ليعتقـد أن بإمـكانه أن يبـدل وضـع المملكة كثيرا لمصلحته ، وادعى أنه يمتلك ممتلكات وراثية واسعة في بلاد الكونت ووعد في أن يتخلى عنها جميعا الى الكونت ويملكه اياها بشكل دائم وبحقوق وراثية اذا ماتمكن فيليب مـن عقـد الزواج بين ابنتي الملك عموري وبين ابني هذا المحامي ، وكان الملك عموري قـد ترك ابنتين كانت احداهما ارملة الماركيز ، وكانت الأخرى ، التـي بلغت سن الزواج الآن ، تعيش مع والدتها الملكة في نابلس ، ووافق الكونت على هذا الاقتراح وبات يجهد في سبيل تدبير أمر هذا الزواج لكن دعونا نعود الى سياق خبرنا .

كنا قـد علمنا الآن الهـدف الذي كانت مـطامح الكونت مـوجهة نحوه ، وهكذا اجبناه أنه ينبغي عرض المسألة أولا على الملك ، ثـم سـننقل في اليوم التـالي الرد الذي سـيراه الملك ـ بعـد التشاور ـ لائقا بالتقديم .

وبعد عقد اجتمـاع تـداولنا فيه القضـية عدنا في الصـباح الى الكونت ، وقدمنا ردا جـاء على النحـو التـالي : إنه مـن عادتنا ، الموافق عليها بالاستخدام الطـويل ، ان لاننظـر في اعادة زواج أرملة ، لاسيما من كانت حاملا منهن ، قبل مضي عام واحـد على وفاة زوجها ، لأن ذلك لن يكون حدادا شريفا ، ولذلك ، ينبغي عليه في حالة هذه السيدة التي لم يكن قد مضى إلا ثـلاثة اشـهر على وفاة زوجها الماركيز ، الا يسيء الفهـم أنه ليس بـامكاننا معـالجة

إعادة زواجها ، لأن ذلك سيكون خلافا لعادات العصر و لبلادنا ، و مع ذلك ، إنه سيلاقي تأييدنا جميعا و موافقتنا اذا أمكن تقديم الاقتراح المذكور آنفا مشفوعا بنصيحة الشخص الذي عرضه الآن لان الملك قد رغب بالتأكيد في أن يوجه بنصيحة الكونت ورغب في أن يتفق معه في الرأي طالما كان متوائما مع شرفه الخاص ، فليأخذ الكونت المبادرة وليحدد شخصا مناسبا لذلك التحالف ونحن مستعدون في المسألة الحالية للعمل وفقا للرغبة العامة .

وتضايق الكونت من هذا الرد وأجاب أنه لن يرضي أبدا وفي اية حال من الأحوال على القيام بهذا مالم يقسم جميع النبلاء أولا انهم سيلتزمون باقتراحه دون نقاش ، لأن أي نبيل سيعتبر نفسه مهانا اذا ماتم رفضه بعدما تمت تسميته .

واجبنا على هذا أنه سيشين شرف الملك وشرفنا أيضا اذا أعطينا أخته لشخص لانعرفه حتى بالاسم ، وبما أن مشيئة الملك وجميع النبلاء كانت واضحة في آخر الأمر ، فقد تخلى الكونت عن نواياه ، لكن ليس بدون اظهار قسط وافر من السخط والرفض .

١٦ ـ وصول رسل من عند امبراطور القسطنطينية المطالبة بتنفيذ المعاهدة التي كان الملك قد عقدها مع حاكمهم على الفور وتجهيز حملة ضد مصر.

وجد في القدس في هذه الآونة سفارة كانت مؤلفة من رجال بارزين ذوي منزلة عالية وهم : السيد اندرونيكوس المكنى انغيلوس ابن أخت الامبراطور وميغالتيراخ (أي) يوحنا وهو رجل عظيم جدا والكونت الكسندر أوف كونفير سانا في أبوليا وهو نبيل من منزلة سامية ، وغيورغيوس اوف سيناي(جورج سيناتيز) أحد عناصر البلاط الامبراطوري (٣٢٥) ، وقد اتوا الى الملك بأمر من الامبراطور الذي

اعتبر الوقت موائما الآن لتنفيذ المعاهدة التي كانت قد عقدت بينه وبين الملك عموري والتي تجددت فيما بعد وفق شروط مماثلة مع الملك الحالي بلدوين ، وكان يأمل بالمزيد ايضا ، بمساعدة الرب ، من قدوم كونت فلاندرز ، وهكذا ، عقد اجتماع عام في مدينة قدس الاقداس ذاتها لدراسة هذه المسألة ، و ذهب جميع نبلاء المملكة إلى هناك ، و تعلق الجميع قاطبة بالأمل ذاته و هو أنه بمشورة الكونت ومساعدة حاشيته فان المملكة ، حبيبة الرب ، يمكن أن تحظى بالتوسع المنشود وأنه يمكن اتخاذ اجراءات فعالة لابادة أعداء المسيح ، ثم رحل الكونت دون سابق انذار ، كما كنا قد ذكرنا ، وأوقف نفسه على مشاريع أخرى متخليا عن وعوده ، وهكذا دكت اسس آمالنا بالذات ونسفت .

أصر المبعوثون الامبراطوريون على الرغم من تخلي الكونت ، على أنه يجب تنفيذ المعاهدة ، وحاولوا أن يثبتوا أن التأجيل يحتمل أن يترافق بالخطر ، وليس هنالك اي سبب من جانب الاغريق حول عدم مباشرة الحملة المقترحة ، وكانوا مستعدين لانجاز جميع شروط المعاهدة باخلاص وبأداء تام .

وقررنا ، بعد الاستماع لأقوال المبعوثين والتداول مع بعضنا بعضا ، أن نضع المسألة أمام الكونت بأتم التفاصيل . فاستدعى الكونت ، وعندما وصل وضعت امامه مادة الاتفاقية بين الامبراطور وأنفسنا التي دونت بدقة وختمت بالخاتم الذهبي للامبراطور .

وسئل عن رأيه بعدما درس الوثيقة بعناية وفهمها بشكل شامل . فأجاب بأنه غريب وغير مطلع على المنطقة المحلية وخاصة على بلاد مصر ، التي قيل إنها كانت تقع على مسافة بعيدة جدا وأبعد من جميع البلدان الأخرى وأنها خاضعة لأحوال مختلفة كما تفيض الأنهار فيها في مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل . وكنا بالطبع نعرف طبيعة البلاد بشكل أفضل وفرص الاقتراب منها ، الا أنه كان قد سمع من الذين غالبا مازاروا مصر

ان الموسم الحالي لم يكن موسما مواتيا للغزو . وأضاف أن الشتاء بات على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل ، وفوق ذلك كان قد سمع أن الأتراك كانوا قد اندفعوا الى هنالك بأعداد ضخمة ، وأخيرا فقد خشي ، وهذا أهم شيء ، بأنه سيكون هنالك ندرة في المؤن خلال الزحف وحتى بعد وصولهم لمصر ، وأن الجيش سيعاني بالنتيجة من المجاعة .

ادركنا من هذه الاعتراضات انه كان يسعى للعثور على مسوغ نكي ليتجنب تولي القيام بالحملة ، وللحيلولة دون هذا ، فقد قدمنا له ستمائة جمل لنقل المواد الغذائية والأسلحة والأمتعة الأخرى برا ، ووعدناه بتقديم العدد اللازم من السفن لنقل المؤن والآلات الحربية وجميع المعدات اللازمة للحرب بحرا ، الا أنه رفض هذه العروض بأكملها وأضاف بأنه لن يهبط الى مصر معنا بأية شروط خشية أن يضطر وقواته بالمصادفة للمعاناة من المجاعة ، وأضاف انه كان قد اعتاد على أن يقود جيوشه عبر بلدان غنية ، وأن جنوده لن يتمكنوا من تحمل مصاعب من هذا القبيل ، وأنه ينبغي علينا أن نختار منطقة أخرى الى حيث نستطيع تسيير الجيوش بسهولة أكثر ، ولنكافح بشكل موائم لنشر الاسم المسيحي ولابادة أعداء المسيح وعندها سيعد التحضيرات مع جنوده بسرور للانطلاق .

١٧ ـ معارضة الكونت تعيق هذا المشروع المهيب وتحول دون تنفيذ المعاهدة .

ومهما يكن الحال انه لم يكن آمنا ولا جديرا بالاحترام بالنسبة لنا بأن ننسحب من المعاهدة(٣٢٦) ، كما أن الرسل الامبراطوريين الذين كانوا رجالا مشهورين في المنزلة ، كانوا الآن في القدس مع موارد مالية ضخمة ، وأعلنوا انهم مستعدون لتنفيذ المواثيق ، التي أبرمت بين الامبراطور وبيننا ، وباخلاص كما كنا قد ذكرنا ، وكانت لديهم سبعون شيني راسية في ميناء عكا اضافة الى

سفن اخرى كافية للرحلة والحملة حسب الاتفاق المعقود ، وبدا ان رفض الالتزام بالاتفاق الذي كنا قد تعهدنا به انه امر مخز للغاية وخطير بالفعل ، وشعرنا انه سيكون من الطيش ان نخسر مساعدة الامبراطور المعدة لنا الآن حتى وان وافق الرسل الامبراطوريون على تأجيل الحملة الى موعد آخر ، وعلاوة على ذلك فقد خشينا من استيائه الأمر الذي يمكن أن تكون له نتائج خطيرة بالنسبة للمملكة ، وهكذا صممنا بموافقة الطرفين ، على مباشرة الحملة تمشيا مع المعاهدة والترتيبات المعدة ، وان نستمر بالتحضيرات للحملة التي تم الاتفاق عليها مع الامبراطور منذ زمن طويل .

وغضب كونت فلاندرز غضبا شديدا عندما علم بقرارنا ، وأعلن أن المسألة بأسرها قد صيغت كاهانة له ، وتأجلت الحملة ثانية الى مابعد نهاية شهر نيسان وكان ذلك بموافقة الاغريق مع شعبنا .

وهكذا امكن حل المسائل بهذه الطريقة ، وكان الكونت الآن موجودا في القدس منذ خمسة عشر يوما تقريبا ، وكان قد انجز عباداته ، وهكذا حمل سعف النخيل الذي هو بالنسبة لنا إشارة على حج كامل ورحل الى نابلس وكأنه قد عزم على الانسحاب تماما . وأرسل من هنالك بعد بضعة ايام المحامي عن بيثيون مع آخرين من جماعته الينا في القدس ، وكانوا مفوضين لأن يعلنوا ، باسم الكونت ، انه كان مستعدا ـ وكان هذا هو جوهر مداولاته ـ ليلحق بنا حيثما نشاء سواء أكان ذلك الى مصر أو الى مناطق أخرى ، وبدا لنا تبدل الرأي المتكرر هذا انه سخيف وشعرنا انه يمكن بعدل اتهام الكونت انه صاحب شخصية متقلبة ، حيث لم يلتزم بأي مشروع محدد ، ومع ذلك ، قمنا لدى استلام هذه الرسالة المتضمنة نبأ قراره ، بالتداول على مضض مع الاغريق ، غير انه ثبت أنه لم تكن لديه أية نية في تحويل أقواله الى افعال ، بل العكس ، كان يحاول بكل قوته ان يضعنا في موقع الزلل ، حتى يتمكن من الكتابة الى الأمراء الموجودين فيما وراء الجبال بأننا

نتحمل مسؤولية تأجيل الحملة (٣٢٧) . وكان قد ارسل المذكورين اعلاه آملا في ان الاغريق لن يوافقوا البتة على مطلبنا ، وان خطأه ، سيرتد بالتالي علينا .

١٨ ـ عودة رسل الامبراطور الى بلاده الكونت يتابع السير الى بلاد انطاكيا زواج بالين من ارملة الملك عموري .

طلبنا عند ذلك من الاغريق ان يتأكدوا فيما اذا كانوا مايزالون راغبين بتنفيذ اتفاقهم الاصلي والنزول الى مصر ،شريطة حضور الكونت معنا . فاجابوا انه على الرغم من ان الوقت قصير جدا لاعداد التحضيرات اللازمة لجيوشهم ، انه اذا ما ادى الكونت اليمين بيده في انه سيذهب معنا وانه في حال مرضه اواثناء الزحف سيرسل قواته معنا ، واذا ما وعد بالكفاح لتوسيع الديانة المسيحية في الحملة باسرها باخلاص ودون احتيال او نية شريرة ، واذا ما ضمن علاوة على ذلك ان الاتفاقية ، التي قد رتبت ودونت ، لن تخرق في اي بند من بنودها سواء اكان ذلك بالنصيحة او المساعدة ، واذا ما دفع شعبه ليقسم متعهدا بتنفيذ الشيء نفسه عندئذ سيذهبون معنا مع ان تغييرات مشاعره الكثيرة بدت غريبة وتتناقض بالنسبة لهم مع سمات الرجولة والثبات ، وما هدفهم سوى توسيع مجد المملكة حبيبة الرب وجلب الفخار للامبراطور وزيادته :

ثم عرض المحامي والذين ارسلوا معه اداء القسم على الشروط كما هي مقدمة اعلاه ، بيد انهم لم يكونوا راغبين في ادراج جميع الشروط فيه ولا ان يعدوا ان الكونت سيؤدي القسم ايضا ، وعندهاارفض المؤتمر ، لاننا لم نعد مهتمين في مواصلة النقاش دون الوصول الى هدف ، كما ان المسألة التي تعرضت للمفاوضات مرارا تأجلت الى موسم اكثر مواءمة ، ثم استأذن الرسل الامبراطوريون بالرحيل وعادوا الى موطنهم .

وبدأ ممثلو الكونت يتساءلون بعد رحيل رسل الامبراطور عن سبب تأجيل الحملة المقترحة وعدم تنفيذها حالا وقالوا : « ما هو المشروع الذي بامكان الكونت القيام به بمساعدة المملكة حتى لايبدو كسولا وعاطلا عن العمل ؟ » واخيرا قرر الذين توقف عليهم اتخاذ القرار النهائي ، التحرك نحو طرابلس اوانطاكية حيث بدا ممكنا انجاز شيء ما لمصلحة امجادهم الخاصة ولتقدم المسيحية .

كان هنالك بعض من القى مسؤولية ما حدث على عاتق كونت طرابلس ايضا وهو الكونت الذي كان كارها جدا للحملة الى مصر (٣٢٨) . ولقد كانا يحاولان جره الى مناطقهما حتى يمكن بمساعدته القيام بمشروع ما يؤدي الى توسيع ممتلكاتهما . الا ان هذه الامال تبددت لان السماء لم تسمح للكونت بعمل اي شيء جدير بالواقع بالتسجيل بيننا اوبينهم . وكان بالفعل حقيقا كهذا الذي كان الرب قد سحب تأييده منه ، الا ينجح في اي شيء « لان الله يقاوم المستكبرين واما المتواضعون فيعطيهم نعمة » (٣٢٩) .

هذا وقد وعد الملك في ان يقدم لفيليب تعاونه ومساعدته ، وقد منحه عند رحيله مئة من فرسانه وقوة مؤلفة من الفين من الجنود المشاة.

لقد كانت هذه حالتنا واوضاعنا في حوالي الاول من شهر تشرين الاول (٣٣٠) وغادر الكونت مع قواته في ذلك الوقت ، مصحوبا بكونت طرابلس ومقدم الاسبتارية وعدد كبير من فرسان الداوية وتوجه الى بلاد طرابلس .

وفي حوالي الوقت ذاته ،تزوج – بناء على موافقة من الملك – بالين دي ابلن اخو بلدوين صاحب الرملة من الملكة ماريا ارملة الملك عموري وابنه يوحنا البروتوسيباستوس الذي تكررت الاشارة اليه آنفا ، وتسلم بالين مع ماريا مدينة نابلس التي سبق ان اعطيت لها ايام زواجها كمهر عقاري مسمى ، وكان عليه الاحتفاظ بها خلال حياة زوجته .

١٩ ـ كونت فلاندرز يحاصر قلعة حارم بمساعدة أمير انطاكية وكونت طرابلس ، الا أن الجهود التي بذلوها لم توصل الى محصلة.

بعد الوصول الى طرابلس قاد الكونت قواته بصحبة كونت طرابلس الى بلاد العدو وبعد اعداد جميع الترتيبات الضرورية للزحف وتعبئة الجنود بشكل جيد ، بقيا لفترة من الزمن من مدينتي حمص وحماه ، وهي خطوة أدت الى الحاق بعض الخسارة في صفوف العدو. لأن صلاح الدين كان بعد تحقيق هدفه في تلك المنطقة المجاورة واحلال السلام مع ابن نور الدين حسب شروطه الخاصة قد رحل الى مصر فقد بدت له التحضيرات ، التي أشرت اليها أعلاه ، بأنها تشير الى أن الحملة ، التي كانت تهدد مصر منذ زمن طويل ، والتي أعدت لها الترتيبات قبل وقت طويل ، كانت على وشك الحدوث ، وهكذا ، قاد معه جميع القوات التي حصل عليها من أي مصدر وحشد قواته الضخمة من الفرسان في المواقع الاستراتيجية حيث بدا ممكنا أن تشهد وقوع أكثر الأحداث أهمية فيها ، ونتيجة لهذا وجد الكونت وقواته أن البلاد خالية من المدافعين وانه من الممكن اجتياح المنطقة بدون مقاومة ، بيد أن المدن المحصنة وقلاع المدن كانت مزودة بشكل جيد بالمؤن ، وكان فيها عدد كاف من الحراس والأسلحة من أجل الدفاع عنها.

وعندما عرف أمير انطاكية أن الكونتين قد دخلا الى بلاد العدو بادر بالانضمام اليهما عبر طريق آخر وذلك حسب الاتفاق المعقود بينهم من قبل ، وهكذا فإن القوات المتحدة في قوة واحدة باتت ذات تصميم واحد أيضا ، وبناء عليه تقرر محاصرة قلعة حارم وكانت هذه أفضل خطة في تلك الظروف ، وتقع هذه القلعة في منطقة خالكس التي تعرف الآن باسم حصن صغير جدا ، وتقع كل من المدينة والحصن على بعد نحو اثني عشر ميلا عن انطاكية.

ولدى وصول القوات أمام حارم ، نصب المعسكر على شكل دائرة حول الموقع حيث تم تطويق المحاصرين من جميع الجهات ، ولهذا فقد منعوا بالكامل من الظهور ، ولم يتمكن أي إنسان من الاقتراب ، وإن كان راغبا في ذلك ، لتقديم المساعدة اليهم ، وشيدت على الفور الآلات الحربية وجميع المعدات الضرورية لمواصلة الحصار ، وبنى المسيحيون أيضا أكواخا من الأغصان حيث كان الشتاء يقترب وأيضا كاشارة الى أن العمليات الحربية ستستمر الى النهاية ، وحصنوا المعسكر بالاسيجة للحيلولة دون قيام الأمطار الغزيرة بجرف مقتنياتهم وعمل سكان المنطقة المجاورة والناس المسيحيون في هذه الأثناء بحماسة لجلب المؤن الضرورية من انطاكية والأماكن القائمة في المنطقة المجاورة.

كانت قلعة حارم تخص ابن نور الدين ، وكانت القلعة الوحيدة في ذلك الجزء من المنطقة التي سمح له صلاح الدين بأن يحتفظ بها ، وبعدما أحكم الحصار حولها من جميع الجهات شرع المسيحيون بالهجوم عليها على نوبات متوالية حسبما جرت عادتهم ، وقصفوا الأسوار بالاتهم الحربية بشكل دائم حتى ان المحاصرين لم يتمكنوا من الحصول على راحة من اي نوع .

٢٠ ـ وصول صلاح الدين مع قوات ضخمة من مصر وغزوه المملكة. احتلاله موقعا امام عسقلان. خروج الملك لمقابلته مع جميع قوات المملكة. نشوب معركة هامة امام المدينة.

كانت هذه هي أوضاع الأمور في أنطاكية آنذاك ، وكان صلاح الدين قد علم في غضون ذلك أن الكونت والجيش المسيحي بأكمله كانوا قد تقدموا الى منطقة أنطاكية ، عرف ذلك بينما كان ينتظرهم بخوف شديد ، في بلاد مصر ، وبدا له بشكل مقنع بأنه يستطيع بأمان أن يغزو بلادا مجردة من جنودها ، حيث يمكن تأمين واحد من شيئين بسهولة ، فإما أن الغزو سيجبر العدو على التخلي عن

حصار حارم ، أو سيتمكن من تحقيق نصر على التروكين في المملكة إذا اصروا على مواصلة ذلك.

وهكذا ، جمع العساكر بأعداد كبيرة من جميع المصادر وأمر بتجهيزهم بشكل حتى أفضل من المعتاد بالأسلحة وبجميع الأشياء المستخدمة عموما في الحرب ، ثم خرج من مصر مع هذا الجيش . وبعد سيره بدون توقف واجتيازه للبراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين وصل الى مدينة العريش القديمة المهجورة حاليا ، وترك هناك جزءا من الأمتعة الثقيلة وأثقال الجنود ، ثم أخذ معه الجنود المسلحين تسليحا خفيفا وأكثر المحاربين ممارسة ومر بقلعتي الداروم وغزة.وتعد مدينة غزة مدينة مشهورة جدا وبعدما بعث بالكشافة امامه ظهر فجأة امام عسقلان.

هذا وكان الملك قد تلقى تحذيرا عن تقدمة قبل بضعة أيام ، فبادر الى جمع القوات التي كانت ما تزال باقية في المملكة ، وقام مع جنوده بالعسكرة بالمدينة قبل وصول صلاح الدين اليها.

وكان كونت طرابلس قد مضى ، كما ذكرنا من قبل ، آخذا معه مئة من فرساننا وكانوا رجالا منتقين أختيروا من بين عدد كبير ، وكان مقدم الاسبتارية قد مضى أيضا ومعه إخوانه وعدد كبير من فرسان الداوية ، وكان بقية الداوية قد انسحبوا الى غزة توقعا منهم أن صلاح الدين سيحاصر ذلك الموقع ، حيث كانت تلك المدينة الأولى من مدننا التي سيصلها ، وكان همفري كافل المملكة يعاني آنذاك ــ كما أشرنا من قبل ــ من مرض خطير. ولذلك لم يكن مع الملك سوى قلة من الجند. وعندما علم أن العدو كان يتجول بكل حرية وبطريقة عدوانية وأنه كان قد تفرق عبر السهول المتاخمة لأراضينا ، ترك عددا قليلا من الجنود لحراسة المدينة وخرج مع قواته المستعدة للقتال طالبين المساعدة من عليين.

كان صلاح الدين قد حشد عساكره ككتلة واحدة بالقرب من

المدينة وعندما تقدم الجيش المسيحي ورأى أفراده الأعداد الضخمة لأعدائهم ، نصح الذين كانوا اصحاب خبرة اكبر في الحرب أن تبقى القوات في موقعها الحالي بدلا من ان تجازف بقدرها المجهول في المعركة . وهكذا فقد صد المسيحيون هجمات الأعداء حتى المساء ، ذلك أن القتال لم يتعد في ذلك اليوم المبارزات الفردية في فترات منفصلة ، لأن الجيشين لم يكونا بعيدين عن بعضهما ومع اقتراب المساء تراجع المسيحيون بحكمة الى المدينة مجددا حيث بدا من المخاطرة أن يودعوا قواتهم البسيطة في معسكر لقضاء الليل بسبب أعداد العدو المتفوقة ، وأثار هذا العمل صلاح الدين وجنده الى درجة من التعجرف حيث لم يبقوا بعد ذلك في ترتيب متراص ، بل تمزقوا وأخذوا في استعراض قواهم والتبجح بها ، وبدأ صلاح الدين يوزع أجزاء محددة من ممتلكاته المكتسبة على اتباعه الجنود وكأنه قد ظفر بالنصر ، وبدأت قواته تتصرف بإهمال تام للحذر ، وكأنها كانت قد ضمنت كل ما كانت ترغب به ،وتجولت بحرية في زمر مبعثرة وطافت في المنطقة في جميع الجهات .

٢١ ـ الأتراك يجتاحون المنطقة بالطول والعرض ويحرقون المدن والمناطق النائية.

افترضنا أثناء الليل أن العدو كان منشغلا في اقامة معسكره امام المدينة ، حيث المكان الذي كان عنده في اليوم السابق ، أو كان قد اقترب الى مسافة أقرب من المدينة وبات يحاصرها تماما ، لكن الذي حدث هو العكس. فقد انتشرت قواه على شكل زمر فوق المنطقة بأسرها ، هنا وهناك كما استحوذ الباعث على بعضهم البعض ودون أن يتركوا لأنفسهم أو لخيولهم أية استراحة . وكان بين قادتهم شخص يدعى جاولي (٣٣١) ، كان محاربا شجاعا ومستعدا دائما لتنفيذ اية مأثرة جريئة ، وكان ارمني المولد ، ومرتدا ، كان قد تحول الى الأمم بعدما تخلى عن عقيدة الوسيط بين الرب

والانسان ، وكان يتبع سبلا ملتوية ، وتقدم هذا الرجل مع الجند الذين كان يقودهم الى الرملة وهي مدينة واقعة في السهل ، وأحرقها بعدما وجدها مهجورة ، وكان السكان قد هجروا المدينة بيأس لانها لم تكن محصنة بشكل جيد ، وكان بعضهم قد ذهب مع حملة بلدوين الى عسقلان ، وكان آخرون قد ذهبوا الى حيفا مع الضعفاء والنسوة والأطفال ، وكان بعضهم أيضا قد ذهبوا الى حصن محصن بشكل جيد في الجبال التي تدعى مجدل يابا . وتقدم جاولي مع جميع قواته ، بعد أن أحرق الرملة ، الى مدينة اللد المجاورة ، وقسم جنوده هنا وطوق المدينة بسرعة ، ثم هاجم السكان بوابل من السهام والأسلحة من كل نوع وانهكهم دون توقف ، وهرب جميع السكان الى كنيسة الشهيد المبارك القديس جورج .

استحوذ في هذه الرحلة الخوف واليأس على المسيحيين حيث بدا أن أملهم الوحيد يتوضع في الفرار ، فقد حل الرعب الكبير ليس بين الناس الموجودين في السهول حيث كان العدو يطوف بحرية ودون مقاومة ، بل حتى بين الذين يعيشون في الجبال ، وكان سكان القدس نفسها مستعدين الى حد ما للتخلي عن المدينة المقدسة ، وحيث لم تكن لديهم أية ثقة في تحصيناتها ، فقد أسرعوا بالتلهف الكلي الى برج داوود ، كما يعرف بهذا الاسم عموما ، وتخلوا عن باقي المدينة . وكان بعض المغيرين قد تقدموا وصولا الى الموقع المسمى باسم قاليقليا وكانوا قد انتشروا فوق سطح ذلك السهل بأكمله تقريبا ، وكانوا الآن على وشك مغادرة المنطقة المستوية والصعود الى الهضاب.

وكان مظهر هذه المنطقة الآن بائسا ومنهكا بالمرارة ، كما كان في اليوم الذي فيه سخط الرب عندما « غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام »(٣٣٢) ومع ذلك « فإنه لم يكبح رحمته حتى في غضبه ، ولم ينس الرحمة أيضا(٣٣٣)» إلا انه« مال الينا وواسانا (٣٣٤) وساعدنا

وكان مايزال مؤيدا لنا (٣٣٥) وء وقعا لحشد الأحزان في قلوبنا ابهجت مساعداته ارواحنا (٣٣٦) ».

٢٢ ـ الملك ينطلق من عسقلان ويقابل العدو. الطرفان يعبئان صفوفهما للقتال ويستعدان للمواجهة.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في ذلك الجزء من البلاد ، وصل نبأ الى الملك مفاده أن حشدا من العدو ، قد انتشر فوق أراضيه بالطول والعرض ، واستولى على ممتلكاته ، ولذلك غادر عسقلان على الفور مع جنوده واستعد للزحف ضد العدو ، لأنه شعر أنه من الأكثر حكمة تجريب الأقدار المريبة للحرب مع العدو بدلا من أن يكره شعبه على التعرض للسلب والحرائق والنبائح ، وهكذا زحف بمحاذاة الساحل وتقدم على طول شاطىء البحر عله يتمكن من مباغتة العدو خلسة وفجأة ، وعندما وصل الى الموقع الذي كان صلاح الدين مخيما في سهله ، وجه على الفور جميع قواته من الفرسان والمشاة بترتيبهم العسكري نحوه وانضم اليه فرسان الداوية الذين كانوا قد بقوا في غزة واستعدوا مع بعضهم بعضا بصفوف منتظمة بترتيب المعركة لمواجهة العدو ، وأثناء زحفهم ، وهم مصممون على الهدف الواحد للانتقام لمظالمهم ، فإن منظر الحرائق في كل الجهات وروايات المنبحة التي حلت بشعبهم قد الهبتهم بشجاعة ربانية وأسرعوا الى الأمام كرجل واحد ، ورأوا صفوف العدو فجأة أمامهم وعلى مسافة قريبة . وكان ذلك حوالي الساعة الثامنة من النهار.

وكان صلاح الدين قد علم خلال ذلك أن المسيحيين كانو يتقدمون على أمل القتال. ونظرا لأنه كان يخاف من الاشتباك الذي كان قد تلهف اليه بوضوح حتى الآن ، فقد أرسل رسلا لاستدعاء جنوده ، الذين كانوا قد تفرقوا في اتجاهات مختلفة ، وحاول أن

يشجع رجاله لخوض القتال بصوت الأبواق وقرع الطبول وبالنصائح أيضا ، كما هو مألوف في أوقات كهذه ، وأن يثيرهم بأقواله(٣٣٧)

وكان مع الملك أودو دي سانت أماند مقدم فرسان الداوية وثمانون من إخوانه ، والأمير رينو وبلدوين صاحب الرملة ، وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا ، والكونت جوسلين عم الملك وقهرمانه ، ولم تتجاوز اعدادهم على ـ قرابة ـ ثلاثمائة وخمسة وسبعين فردا بما في ذلك جميع المراتب والحالات ، وتقدموا جميعا بعدما التمسوا المساعدة من السماء بتشكيل المعركة وهم متلهفون للمواجهة يقودهم صليب الصلبوت الرائع المانح للحياة وكان يحمله البرت اسقف بيت لحم .

بدأت في الوقت نفسه قوات العدو ، التي كانت قد غامرت بالتوغل الى مسافة بعيدة بعض الشيء للبحث عن الغنيمة ونشرت الحرائق ، بالوصول من اتجاهات مختلفة ، الحال الذي زاد كثيرا من قوة صلاح الدين ، وفي الواقع ، لو لم يكن الرب ، الذي لا يخذل ابدا الذين يضعون ثقتهم فيه (٣٣٨) ، قد الهب جنودنا بشكل شفوق بشجاعة داخلية ، لكان المسيحيون قد دفعوا الى اليأس ليس من النصر فقط ، بل من الحرية والسلامة أيضا ، ومع ذلك ، فقد نظموا قواتهم وعبأوها بترتيب المعركة ونظموا صفوفهم حسب الاسس العسكرية ، وأعدوا بترتيب موائم الذين توجب عليهم شن الهجوم الأول مع الاحتياطيات التي توجب عليها الحضور لمساعدتهم.

٢٣ ـ وقوع معركة. هزيمة صلاح الدين واجباره على الفرار وسط مخاطر واسعة وخزي كبير.

اقتربت الآن صفوف المحاربين في كلا الجانبين بالتدريج من بعضهما بعضا وأعقب ذلك معركة لم تكن حاسمة في أول الأمر ،

وكانت القوات غير متكافئة ابدا .إلا أن المسيحيين الذين عززتهم الرحمة التي اغدقتها السماء عليهم ، بدأوا على الفور يشددون الخناق على عدوهم بشجاعة متزايدة دوما ، فتبددت صفوف صلاح الدين واضطر الى الفرار بعد مذبحة رهيبة.

وحيث كنت راغبا بالتيقن من الحقائق الواقعية ، فقد أجريت تحقيقا حول أعداد العدو ، واكتشفت من روايات العديد من الناس الثقاة أن ستة وعشرين ألف فارس مسلحين تسليحا خفيفا بالاضافة الى آخرين ممتطين صهوات الجمال وحيوانات التحميل كانوا قد دخلوا منطقتنا (٣٣٩) ، وكان من بين هذه القوات ثمانية آلاف ينتمون الى الجنود الرائعين الذين يحملون بلغتهم الخاصة باسم طواسين وكان الثمانية عشر الف الآخرون هم الفرسان العاديون المعروفون باسم قراغلام (٣٤٠) . وعمل الف من اشجع الفرسان كحرس لصلاح الدين ، وكان جميع هؤلاء يرتدون حريرا اصفر فوق دروعهم وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه. ومن عادة الحكام الأتراك والزعماء العظماء ، والذين يسمون باللغة العربية باسم امراء ، ان يربوا بعناية كبيرة بعض الرجال الشبان ، بعضهم عبيد اسروا في الحرب ، وآخرون تم شراؤهم او ربما ولدوا من امهات جوار ويدرب هؤلاء الشبان على العلوم العسكرية ، وعندما يبلغون سن الرجولة فانهم يعطون اجورا او حتى ممتلكات كبيرة حسب جدارة كل منهم ، ويعرف هؤلاء الرجال بلغتهم الخاصة باسم مماليك ، ويعهد اليهم بواجب حماية ذات مولاهم اثناء تقلبات المعركة ، ويعتمد عليهم بدرجة مماثلة من الأهمية الأمل في تحقيق النصر. ويحاولون دوما بالاجماع وهم يحيطون بسيدهم حمايته من الأذى ويتشبثون به حتى الموت ، ويواصلون القتال كرجل واحد حتى يلوذ بالفرار وينجو وهكذا ، يحدث مرارا أنه في الوقت الذي يفلح فيه الباقون بالفرار ، يقتل جميع المماليك تقريبا(٣٤١)

طارد المسيحيون العدو المنهزم من المكان المعروف باسم تل

الصافية الى ما بعد المخاضات الموجودة وراء نهر هذا التل حتى غياب الشمس وهبوط الليل عليهم ، وظل العدو يقتل بلا رحمة أثناء ذلك الفرار لمسافة اثني عشر ميلا ونيف . ولولا حلول الظلام الذي جاء سريعا فأنقذهم من مطارديهم لما بقي أحد من صفوفهم على قيد الحياة ، وقام الجنود الأكثر قوة والذين كانت معهم خيول سريعة بإلقاء أسلحتهم وأعتدتهم وتخلوا عن أحمالهم حتى يسهل عليهم الفرار وهربوا بكل قوتهم تاركين الناس الضعفاء وراءهم ، ونجا هؤلاء من الموت بفضل حلول الظلام . وواجه المتخلفون مصيرا أسوأ حيث أسروا جميعا أو كانوا طعمة للسيف .

وفقدنا في بداية القتال أربعة أو خمسة من الفرسان وبعض الرجالة إلا أن العدد الدقيق لهؤلاء ليس معروفا .

عندما وصل الذين كانوا قد نجوا بالفرار إلى مستنقع المخاضات المذكورة منذ لحظات القوا بين القصب وفي الماء نفسه كل ماكانوا لايزالون يحملونه أي دروعهم وواقيات أقدامهم المصنعة من الفولاذ حتى يمكنهم أن يتقدموا بأنفسهم غير معاقين ، وحتى الأسلحة قذفت في الماء حتى لايتمكن المسيحيون من استخدامها حتى كعلامة للنصر .

إلا أن شعبنا استرد جميع هذه الأشياء بسرعة ، لأنه بتتبعه الدقيق لخطوات العدو الهارب ، فتش في تلك الليلة وفي اليوم التالي وبشكل دقيق المستنقع المملوء بالقصب المذكور منذ لحظات ، وبتمشيطهم للمستنقع نفسه بالقوائم والكلاليب ، فقد وجدوا بسرعة كل شيء كان العدو قد خبأه هناك .

لقد سمعنا من أشخاص جديرين بالتصديق أنهم رأوا في أحد الأيام مئة درع استردت من ذلك الموقع بالاضافة إلى الخوذ وواقيات السوق الحديدية وأشياء أخرى ذات قيمة أدنى إنما كانت ماتزال ثمينة ومفيدة .

اضفت الرحمة السماوية علينا هذه النعمة الظاهرة ، الجديرة بالتذكر إلى الأبد ، في العام الثالث من حكم الملك بلدوين الرابع وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، عيد الشهيدين بطرس الاسكندراني والعذراء كاترين (٣٤٢).

عاد الملك إلى عسقلان حيث انتظر عودة قواته التي كانت قد طاردت الهاربين بطرق مختلفة ، ووصل الجميع خلال أربعة أيام وهم محملون بالمغانم ، وجاؤوا يحملون الخيم ويسوقون أمامهم العبيد وأعدادا كبيرة من الجمال والخيول حسب أقوال الرسول : « كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة » (٣٤٣) .

٢٤ ـ جو عاصف وبرد غريب ينهك قوى الهاربين الذين كانوا قد نجوا من المعركة. موت اعداد كبيرة منهم واسر آخرين كثر. الملك يعود الى القدس ظافرا.

اظهر ظرف آخر بوضوح ايضا أن الرحمة السماوية كانت معنا ، فقد هطلت أمطار عنيفة مصحوبة ببرد غريب في اليوم التالي ولمدة عشرة أيام متتالية بعد ذلك ، لدرجة بدت تقريبا بأن العوامل الجوية نفسها قد تآمرت ضد الأعداء ، وكانوا قد فقدوا جميع خيولهم والتي لم تكن قد تلقت اي طعام أو شراب أو حتى استراحة خلال احتلال أراضينا الذي دام ثلاثة أيام ، وكانوا قد القوا وبشكل طوعي ايضا امتعتهم وجميع انواع الملابس ، كما ذكرنا ذلك . ولزيادة مجموع تعاساتهم كانوا بلا طعام تماما وكانوا يهلكون من البرد والجوع وتعب المسير وعبء مشقات غير مألوفة ، فقد كان يعثر في كل مكان على عدد قليل من هؤلاء الهاربين تارة وعلى أعداد كبيرة تارة أخرى حيث تمكن حتى الضعفاء والعاجزون من صب جام غضبهم عليهم كما يحلو لهم ، كما أن الكثيرين بجهلهم بالمناطق وباعتقادهم أنهم كانوا في الطريق إلى الوطن ، قدموا انفسهم في قرانا إما للمسافرين أو الذين كانوا يتصيدونهم .

وفي هذه الأثناء ، بادر البداة العرب ، ذلك العرق من الكفار ، بعدما تصوروا الكارثة التي كانت قد حلت بالأتراك ، نحو الذين كانوا قد تركوا لحراسة الأمتعة في مدينة العريش كما كنا قد ذكرنا ذلك ، وسببوا لهم ذعرا كبيرا عندما نقلوا إليهم أخبار الكارثة التي كانت قد حلت بشعبهم لدرجة أنهم هربوا بفزع ، وطارد هؤلاء البداة بمواظبة أي واحد نجح بالمصادفة بالتملص من قبضتنا ، وهكذا فإن الذين اعتقدوا أنهم كانوا قد نجوا منا سقطوا في أيديهم كفريسة ، بحيث بدت النبوءة القائلة : « فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء »(٣٤٤) . قد تحققت ، ويقال إن الشيء التالي هو عادة ذلك العرق الشرير ، فهم يتجنبون دائما مخاطر القتال مهما كان القائد الذي يتقدمون تحت قيادته إلى المعركة ، ولايشتبكون طالما نتيجة المعركة مازالت مجهولة ، ويقفون ينتظرون عن بعد ، وعندما يتقرر مصير المعركة يلحقون أنفسهم بالمنتصر ، ويطاردون الأعداء المهزومين ويغنون أنفسهم بالمغانم .

جلب الأسرى لعدة أيام من الغابات والجبال وحتى من الصحراء . وقدموا أحيانا إلينا طوعا مفضلين على أن يحتجزوا بالسلاسل والسجون على أن يهلكوا تحت عذاب البرد والجوع .

أسرع الملك في هذه الأثناء إلى القدس ، بعد أن وزع المغانم والثروات حسب قواعد الحرب ليقدم صلوات الشكر والقرابين للنعم التي أغدقها الرب عليه ، وعاد صلاح الدين ، الذي كان قد مضى نحونا بنفس شديدة الرعونة ومع صفوة لاتحصى من الفرسان مصفوعا باليد الربانية وليس معه إلا مئة من أتباعه تقريبا . ويقال إنه نفسه كان راكبا على جمل .

فلندرس بمزيد من الاحكام والدقة سخاء هذه الهبة الالهية ولنعتبر كيف أن العون الرباني رغب في أن يكون المجد كله له في السخاء المظهر نحونا ، فلو كان كونت فلاندرز ، وأمير أنطاكية ، وكونت طرابلس ــ والمجموعة الضخمة من الفرسان الذين لم يكونوا

حضورا ، قد شاركوا في هذا النصر الذي أحدثته الرحمة السماوية ، ما كانوا ليترددوا في الاعتقاد ، مع أنهم لم يقولوا : « يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه » (٣٤٥) . لأن الطائشين والغافلين ميالون للتسلسل بهذا الشكل عندما يكون كل شيء مواتيا .

والآن ، حسب قوله كما هو مكتوب : « ومجدي لا أعطيه لآخر » (٣٤٦) . فقد احتفظ بكل المجد والسلطة لنفسه بينما لم يستخدم مساعدة الكثيرين ، بل مساعدة القلة . وجدد بلطفه الشفوق معجزة جدعون ، فبدد حشدا ضخما وأوضح بالتالي كيف يمكن للمرء بمساعدته فقط وليس بمساعدة كائن آخر « أن يطرد واحد ألفا ويهزم اثنان ربوه » (٣٤٧) .

ولذلك فلنعزو النصر له فهو الذي يأتي منه كل خير وهبة تامة (٣٤٨) ، لأنه لايوجد في هذا المثال الحالي أي شيء يستطيع المرء أن يعزوه لأعماله ، إنها هبة الرحمة السماوية وقد أظهرت للذين لايستحقونها . « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض » (٣٤٩) . « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك » (٣٥٠) .

٢٥ ـ القوات المحاصرة لقلعة حارم في منطقة انطاكية تتخلى عن المهمة وتعود الى اراضيها.

بينما كانت هذه الأحداث تقع بيننا ، واصل الكونت والموجودون معه حصار القلعة المشار إليها آنفا دون جدوى ، لأنهم كانوا منكبين على الطيش واهتموا كثيرا بألعاب الحظ والمسرات الشريرة الأخرى أكثر مما سمح به النظام العسكري أو قواعد عمليات الحصار ، وكانوا يجيئون ويذهبون باستمرار إلى انطاكية حيث امضوا وقتهم في الحمامات والولائم وانغمسوا في فنون السكر ومسرات جسدية أخرى متخلين بالتالي عن عمل الحصار لأجل مباهج الكسل .

وحتى الذين بدوا أنهم مواظبون على الحضور هناك أصبحوا

كسالى ومهملين ولم ينجزوا شيئا له اهميته . وامضوا وقتهم في الكسل وعاشوا حياة فاسدة (٣٥١) .وصرح الكونت نفسه يوميا انه ينبغي عليه العودة إلى الوطن ولمح بأنه كان محتجزا في حارم على الرغم من إرادته . ولم يعق هذا الموقف الذين كانوا يحاولون بشرف مواصلة الحصار في الخارج فقط ، بل زود بحافز لبذل مقاومة أكثر شجاعة من جانب سكان البلدة ، وكان الأمل في أنه سيتم رفع الحصار حالا صعبا ، لكن حتى ذلك كان أفضل من تسليم الحصن الذي عهد به إليهم إلى الجنس المقيت ، والتعرض بالتالي لخزي الخونة إلى الأبد .

تحتل قلعة حارم موقعا مرتفعا على هضبة يبدو أن معظمها كان اصطناعيا وهي سهلة المنال للمهاجمين من جانب واحد فقط ، وأما بالنسبة للجهات الأخرى فلا يمكن أن يبلغها أحد يرغب بشن هجوم عليها . إلا أنه من الممكن بالنسبة لآلات القذف الحربية أن تقصفها من جميع الجهات دون عائق .

وكانت قد شنت عليها هجمات متوالية مع نتائج متنوعة ، وبرهنت هذه الهجمات وأشارت إلى أنه إذا تم شن هجوم قوي عليها فمن الممكن الاستيلاء على القلعة بمساعدة عليين ، إلا أن المسألة انتقلت كما قلنا إلى حالة من اللامبالاة ، وكانت الشجاعة بأسرها قد رحلت عنا كما كان التعقل بأكمله قد تلاشى بسبب آثامنا ، وبدأ المسيحيون يتدارسون مسألة العودة إلى الوطن ، على الرغم من أن المحتجزين داخل أسوارها كانوا قد وصلوا الآن إلى الدرجة الأخيرة من اليأس ــ ولايمكننا أن نذهش بشكل كاف أمام حقيقة أن الرب أسدل ظلاما كبيرا على عقول هؤلاء الأمراء العظماء ، وأعماهم بغضبه (وهذا فوق التصور البشري) فعلى الرغم من أنه لم يكرههم أحد ، وكانت القلعة الآن تحت سلطانهم تقريبا ، تخلوا عنها للعدو بدافع الغيرة وبرغبتهم الخاصة في الكسل ، وعندما أدرك الأمير أن كونت فلاندرز قد صمم على سلوكه

وكان مصمما على هذا القرار بشكل نهائي ، قبل من المحاصرين مبلغا من المال ، لانعرف مقداره ورفع الحصار .

ثم عاد كونت فلاندرز إلى القدس حيث احتفل بأعياد الفصح المقدسة ، ثم أجرى استعداده للعودة وحالما جهزت الشواني وسفن النقل اللازمة أبحر من اللاذقية في سورية بنية العودة إلى موطنه بعد زيارة لأمبراطور القسطنطينية لكنه خلف وراءه ذكرى لم تكن مباركة على الأطلاق (٣٥٢) .

وتصالح في هذه الآونة نفسها فريدريك امبراطور الرومان مع البابا ألكسندر في مدينة البندقية بعد عشرين عاما من الشقاق .

وانهارت أسوار مدينة القدس المقدسة جزئيا بسبب عمرعا الكبير ، وهكذا انضم الأمراء الدينيون والعلمانيون مع بعضهم بعضا في هذه الآونة وقرروا أنه ينبغي دفع مبلغ ثابت من المال سنويا حتى ينتهي عمل ترميم الأسوار بمساعدة الرب ، ويكون بالتالي قد أنجز القول : « أحسن برضاك إلى صهيون ابن أسوار أورشليم » (٣٥٣) .

٢٦ ـ الاعلان عن عقد مجمع كذسي عام في روما. الملك يبني قلعة فيما وراء نهر الأردن في ظل شارات معاكسة ويعهد بها عند انتهائها الى الداوية.

غادر شرقنا في شهر تشرين الأول (٣٥٤) من العام الخامس لفترة حكم الملك بلدوين الرابع الذي كان العام ١١٧٨ لتجسيد ربنا ، بعض الرجال ، الذين كانوا قد استدعوا لحضور مجمع كذسي عام في روما جرى الاعلان عنه في العام السابق في كل مكان من العالم اللاتيني بأسره . وكان الممثلون المدعوون (٣٥٥) : أنا وليم رئيس أساقفة مدينة صور وهرقل رئيس أساقفة قيسارية والبرت أسقف بيت لحم ورالف أسقف سبسطية ، وجوشيوس أسقف عكا ورومانوس

أسقف طرابلس ، وبطرس رئيس شماسة القبر المقدس ورينالد رئيس جبل صهيون ولم يحضر جوشيوس ـ فقط ـ المجمع الكنسي معنا ، بل ذهب أيضا كمبعوث إلى هنري دوق بيرغندي وهو مكلف بمهمة دعوته للقدوم إلى المملكة ، لأننا كنا قد وافقنا بالاجماع على وجوب زواجه من أخت الملك وفق الشروط نفسها التي كانت قد أجريت في زمن الزواج السابق للماركيز ، وتلقى الدوق هذا العرض على يدي الأسقف جوشيوس بلطف ويقال إنه أقسم بيده أنه سيأتي غير أن الدوق أهمل قسمه لأسباب لاتزال مجهولة بالنسبة لنا ، ورفض الوفاء بالوعد الجليل الذي كان قد ألزم نفسه به .

وبدأ الملك خلال الشهر نفسه الذي بدأنا فيه رحلتنا لحضور المجمع الكنسي ، مع سائر قوة المملكة ببناء قلعة فيما وراء نهر الأردن في الموقع المعروف عموما باسم مخاضة يعقوب (٣٥٦) .

تقول الروايات القديمة إن هذا هو المكان الذي قسم فيه يعقوب ، لدى عودته من بلاد الرافدين ، شعبه إلى زمرتين وأرسل رسلا إلى أخيه قائلا : « إني بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صرت جيشين » (٣٥٧) . وتقع هذه المخاضة في منطقة قادس النبطية ، الواقعة بين النبطية ودان ، وتعرف الأخيرة منها باسمي بانياس وقيسارية فيليبس . وتشكل هاتان جزءا من فينيقية ، وهما مدينتان تابعتان لمدينة صور ، وتقع المخاضة على بعد عشرة أميال من بانياس ، فوضعوا هنالك ، على هضبة ذات ارتفاع معتدل ، أسسا ذات عمق مناسب ، وشيدوا خلال ستة أشهر قلعة ذات بناء صلب على شكل مربع وذات سماكة رائعة وارتفاع كاف .

وبينما كانوا منشغلين في عمليات البناء هناك ، حدث أن ظهر قطاع الطرق من منطقة دمشق وحاصروا بالتالي الطرق العامة بحيث لم يتمكن أحد من الخروج جيئة وذهابا من الجيش دون التعرض للخطر ، كما لم يتمكن المسافرون من السير على اي من الطرق ، وقدم هؤلاء اللصوص من موقع في الجبال الواقعة بالقرب من عكا

يدعى بكدس أو بكال باللغة العامية . ويقع هذا الموقع بشكل سار للغاية في منطقة زوبلون ، وعلى الرغم من أنه واقع على قمة أحد الجبال ، فهو يروى بشكل جيد ومزروع ببساتين كثيفة من الأشجار المثمرة ، وسكانها رجال متغطرسون ومقاتلون أشداء ورجال فخورون كثيرا بأعدادهم الضخمة جدا حيث جعلوا بوساطتها جميع الحقول والقرى المحيطة بهم تابعة إليهم . وهم يقدمون ملاذا آمنا بينهم للأشرار الآبقين من عقاب مناسب ولقطاع الطرق واللصوص ، وذلك بالنظر إلى أنهم يتلقون حصة من الغنيمة والمغانم المستولى عليها بالعنف . وكان هؤلاء الناس قد أصبحوا بسبب تعجرفهم الذي لايحتمل مكروهين من قبل جميع الموجودين حولهم من المسيحيين والمسلمين على حد سواء ، وبذلت محاولات متكررة لابادتهم تماما لكن دون نجاح ، وبالنتيجة ، أصبحوا أكثر شجاعة بشكل يومي . ووجد الملك نفسه في آخر الأمر أنه لم يعد بإمكانه تحمل رعونتهم التي لاتحتمل والسرقات والجرائم التي ارتكبوها بعد اليوم فاستولى على الموقع فجأة وبقوة السلاح وقتل جميع من استطاع أن يقبض عليهم ، إلا أن غالبيتهم نجت ، لأنهم كانوا قد هربوا مع زوجاتهم وصغارهم إلى منطقة دمشق بعدما علموا بنية الملك وواصلوا من دمشق عاداتهم القديمة وشنوا هجمات كثيرة على منطقتنا وبشكل سري .

وكانوا قد اجتاحوا أراضينا في هذه الآونة مع أصحاب لهم من الصنف ذاته كما تم ذكر ذلك ، وأثارت هذه الأعمال المسيحيين ، وأغضبهم كثيرا معرفة أن رجالا من هذا الصنف كانوا يجعلون الطرق العامة خطرة جدا ، وهكذا ، نصبوا كمائن في مواقع استراتيجية ووجهوا جميع أنشطتهم لخداع الأوغاد ، وحدث ذات ليلة أن كان هؤلاء اللصوص ينزلون من جبال زوبلون بعد قيامهم بإحدى الغارات وهم عازمون على العودة إلى الموقع الذي كانوا قد انطلقوا منه ، غير أنهم جنوا ثمرة أساليبهم بوقوعهم في كمائن نصبها المسيحيون حيث أسر تسعة منهم وقتل أكثر من سبعين آخرين ، وحدث هذا في الحادي والعشرين من شهر آذار (٣٥٨)

وعقد في هذه الآونة نفسها ، في الخامس من شهر آذار ، مجمع كنسي مؤلف من ثلاثمائة أسقف في روما في كاتدرائية قسطنطين المسماة اللاتيران . كان هذا في العام العشرين من حبرية البابا اسكندر (٣٥٩) وفي الثاني عشر من الاسبوع الثاني.

إذا ما رغب أحد بمعرفة القرارات المتخذة وأسماء الأساقفة وعددهم وألقابهم فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي ألفناه بدقة تلبية للمطلب الجاد للرهبان المقدسين الذين شاركوا في هذا المجمع الكنسي ، وقد أمرنا في أن يوضع هذا في سجلات الكنيسة المقدسة في صور بين الكتب الأخرى التي جمعناها لتلك الكنيسة نفسها التي نرأسها منذ ستة أعوام (٣٦٠)

٢٧ ـ الملك يغزو منطقة معادية ويتكبد خسارة هائلة. همفري كافل المملكة يلاقي الموت هناك.

عندما كانت القلعة قد شيدت وانتهت من جميع الجوانب ، بلغت الملك أنباء كان مفادها أن العدو قد قاد قطعانه ومواشيه إلى الغابة الواقعة بالقرب من بانياس بحثا عن الكلأ ، وكانت بدون مقاتلين يمكن الاعتماد عليهم لصد أي هجوم نقوم به ، وهكذا تقدم شعبنا إلى هنالك خلسة ظانا أنه سيتمكن من الفوز عليهم بسهولة إذا كانوا بلا دفاع ولا حماية عسكرية كما تم نقل ذلك ، وأجرى المسيحيون الزحف بأسره ليلا للانقضاض على الأتراك فجأة ، ودون تحذير قبل أن يكونوا عالمين بالمنطقة المجاورة للعدو ، وبلغوا مقصدهم في الصباح ، وبينما كان بعض الجنود يسرعون في هذا الاتجاه وذاك باحثين عن الغنيمة ، كان آخرون يتبعونهم ببطء بعض الشيء وعلى مسافة في الخلف ، وقعت المجموعة التي كان الملك راكبا معها وتسير بإهمال كثير ، في شرك في مكان ضيق ما بين الصخور ، حيث كان يكمن فيه بعض أفراد العدو ، لأنهم بعدما علموا بأننا قادمون قرروا أن يختبئوا آملين بهذه الطريقة أن يتفادوا هجومنا ويحتاطوا

لسلامتهم الخاصة . لكنهم عندما رأوا المسيحيين ينقضون عليهم دون حذر مناسب ، دفعتهم الضرورة مرغمين ليصبحوا شجعانا مع أنهم كانوا كارهين لذلك ولا يزالون يائسين حتى من أرواحهم . فانطلقوا من مكمنهم فجأة وهاجموا جنودنا بشجاعة وذلك بعدما أدركوا أن جنودنا كانوا في موقع صعب ، وكانت رغبتهم الوحيدة حتى في هذا الوقت تجنب العدو بالاختباء ، إلا أنهم قتلوا الآن خيولنا بعدما أطلقوا وابلا من السهام من بعد وشددوا الخناق على قواتنا .

وما أن أدرك كافل المملكة أن العدو قد ظهر هكذا بشكل غير متوقع ومفاجيء حتى انقض عليه بكل غضب وكالعادة حارب بقوة واخلاص بكل قوته لحماية الملك في هذه الأزمة الخطيرة ، حتى لا ينقض عليه العدو ليهلكه ، وبينما كان مشغلا بهذا الشكل ، امطره العدو مرارا وتكرارا بضربات عنيفة احدثت به جراحا مميتة ، وقد انقذ
جنوده بصعوبة من هذا الوضع الخطير ، ونقلوه على صهوة الجواد .

قتل في تلك المعركة جنود مشهورون كثيرون جديرون بالتذكر الورع ، وكان بين هذه المجموعة كل من ابرهام صاحب الناصرة ، وهو شاب له مظهر وسيم ، قدمت شخصيته النبيلة ومولده السامي وثروته الكبيرة وعدا طيبا للمستقبل ، وغودشوكس دي تورت الذي خلف أيضا وراءه سمعة حسنة ، كما قتل آخرون عديدون من منزلة أدنى في ذلك الموقع .

كانت هذه هي حالة الأمور عندما أنقذ الملك بهذا الشكل من خطر كبير جدا بوساطة الجهود التي بذلها أتباعه ، وعاد إلى المعسكر الذي كان قد انطلق منه في وقت سابق واستدعى الجنود المضطربين الذين كانوا قد تفرقوا هنا وهناك .

أصبحت حالة كافل المملكة همفري أكثر خطرا ، وهكذا نقل في الحادي عشر من شهر نيسان إلى القلعة الجديدة التي كانت ما تزال قيد الانشاء ، وبقي على قيد الحياة هنالك مدة عشرة أيام تقريبا ، مطيلا حياته تحت وطأة ألم شديد ، ونطق بعبارته الأخيرة بحكمة وتدبر ، وانتهت في الثاني والعشرين من شهر نيسان الحياة المثالية لهذا الرجل والذي ستحزن بلاده عليه إلى الأبد . ودفن بمراسم لائقة في قلعته الشهيرة والنبيلة تيرون في كنيسة أم الرب المباركة العذراء الطاهرة .

بدأ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا بعد وفاة همفري مباشرة وفي السابع والعشرين من شهر ايار نفسه (٣٦١) ، واطلق دون انقطاع وابلا كثيفا من السهام وانهمك المحاصرين الموجودين داخل اسوار القلعة بهجمات متكررة ، وحدث فجأة ان سهما اطلقه احد المحاصرين يقال إن اسمه كان رينيروس اوف ملروم(رينه دي مارون أو مارويل) أصاب بجرح مميت واحدا من أغنى أمراء صلاح الدين ، وأثار مقتل هذا النبيل اضطرابا كبيرا بين الكفرة إلى درجة انهم تخلوا عن مشروعهم ورفعوا الحصار ورحلوا .

٢٨ ـ صلاح الدين يغزو اراضي صيدا. الملك يجمع قوات المملكة العسكرية ويخرج للتصدي له.

كان صلاح الدين قد غزا من قبل صيدا بقوة السلاح مرتين أو أكثر دون أن يلقى أية مقاومة كما وكان قد نهبها بحرية وأحرقها وقتل سكانها . وقرر في اليوم التالي أن يشن غزوة أخرى وهكذا ، نصب معسكره بين مدينة بانياس ونهر دان وأرسل مناوشين بأعداد ضخمة للحصول على الغنائم واشعال الحرائق . وبقي هو في المعسكر مستعدا للمساعدة في حالة الطوارىء وانتظر هنالك عودتهم ونتيجة هجماتهم ، وبلغ الملك في هذه الأثناء النبأ بأن صلاح الدين هو الذي كان يدمر أراضينا بهذا الشكل ، فأسرع إلى مدينة طبرية

مع جميع القوات التي استطاع أن يجمعها من جميع المصادر آخذا معه صليب الصلبوت . وتقدم من هناك من خلال مدينة صفد ومدينة ناسون القديمة ووصل مع قواته إلى تيرون .

واستلم هناك معلومات دقيقة من الرسل ، الذين كانوا يذهبون ويجيئون باستمرار ، أفادت أن صلاح الدين وجيشه كانوا ما يزالون في الموقع ذاته ، وأنه قد أرسل فرسانه المسلحين بشكل خفيف إلى الأمام ليخربوا حقول صيدا ، وكانوا هناك يقتلون ويحرقون وينهبون بأسلوب عدواني ، ولذلك ، تقرر بالاجماع بعد التداول ، التقدم نحو العدو ، ووجه المسيحيون الجيش ، تمشيا مع هذه الخطة ، من تيرون إلى بانياس ووصلوا إلى قرية تدعى مسفر وكانت هذه القرية واقعة على قمة جبل ، وأمكن منها رؤية المنطقة بأسرها في الأسفل وصولا إلى قاعدة سلسلة جبال لبنان ، وكان معسكر العدو مرئيا أيضا على بعد ، ورأى الجميع الحرائق وأعمال التخريب التي ارتكبها العدو عندما تجول جنده بالمنطقة هنا وهناك .

ولم يستطع جند المشاة ، الذين أضناهم المسير الطويل حتى الانهاك ، مجاراة حركة الفرسان عندما ساقوا بسرعة أثناء نزولهم من الجبال ، وهكذا نزلت قوات الفرسان بصحبة عدد قليل فقط من الجنود المشاة الأكثر نشاطا إلى مكان يعرف عموما باسم مرجعيون واقع في السهل الواقع مباشرة تحت الجبل ، وتوقفوا هنالك لعدة ساعات للتداول حول برنامجهم الاضافي .

أصبح صلاح الدين في تلك الساعة خائفا بعض الشيء ، إزاء خبر الوصول المفاجيء للملك ، وكان قلقا حول طلائعه التي بدت وكأنها معزولة عنه وعن الجيش ، وخشي أيضا من احتمال مهاجمة معسكره ، ولذلك أمر بوضع الأمتعة والمعوقات وجميع المعدات بين السور والفصيل في المدينة المجاورة حيث يمكن العثور عليها بسهولة مهما تكن نتيجة المعركة ، وانتظر نتيجة الأحداث وهو مستعد بهذا الشكل ومتوجس حول النتيجة .

وفي هذه الأثناء ، علم المناوشون ، الذين كانوا قد خـرجوا في حملة نهب ، بذعر كبير باقترابنا ، فعقدوا العزم على الالتحاق بقـطعانهم إذا كان ذلك ممكنا متخلين عن جميع الاعتبارات الأخرى ، إلا أنهـم واجهوا قواتنا بعد عبورهم للنهر الواقع بين منطقة صيدا والسـهل الذي كان جيشنا مقيما فيه كما ذكرت من قبل ، وتلا ذلك على الفور مناوشة من مواقع متلاحمة انتصر فيها المسـيحيون بعـون الرب ، فاستدار العدو هاربا وحاول بلوغ معسكر صلاح الدين إنما بعد قتل العديد منهم وإلقاء عدد أكبر أرضا .

٢٩ ـ نشوب القتال . المسيحيون ينهـزمون ويؤسر العديد منهم .

بينما كانت الأمور على هذه الصورة ، صعد أودو ، مقدم فـرسان الداوية بصحبة كونت طرابلس وآخرون ممن كان يتتبعهـم هضـبة واقعة في الجهة المقابلة ، وكان النهـر إلى يسـارهم وكان السـهل الكبير ومعسكر العدو إلى يمينهم .

وعندما علم صلاح الدين بالمحنة الشديدة التي نزلت بجنوده ، حيث كانوا معرضين للخطر بل للموت ، استعد للذهاب إلى مسـاعدتهم ، وقد اتخذ قراره هذا عندما لمح عددا من جنوده المنهزمين بشكل تام . فانطلق لمقابلتهم ، وشجعهم ، لدى معرفته بالوضع ، بأقوال مشجعة وأعادهم إلى الصفوف . ثم انقض فجأة على المسيحيين الذين كانوا يطاردون الهاربين بشكل طائش .

وفي هذه الأثناء ، كانت قواتنا من المشاة ، التي اغتنـت بالمغانم من القتلى قد خيمت على طول ضفة النهـر ، وكانت تـرتاح بهـدوء اعتقادا منها أنه تم احـراز نصر تـام على العـدو ، إلا أن قـوات الفرسان لاحظت أن العدو الذي اعتقدوا أنهم كانوا قد قهـروه كان يندفع إليهم بقوة مجددة ، فحاربوا بشـجاعة وبصـفوف مضـطربة

ودون وقت أو فرصة لاعادة ترتيب صفوفهم أو تنظيم قواتهم بترتيب المعركة حسب الأسس العسكرية ، وقاوموا لبرهة من الزمن ، وصدوا بقوة هجمات العدو ، وأخيرا استداروا وهربوا على أقبح صورة ، وكان بإمكانهم أن يتجنبوا بسهولة العدو المطارد وانقاذ أنفسهم بالتحول إلى اتجاه آخر ، إلا أنهم اتبعوا بسبب آثامنا خطة هزيلة واندفعوا إلى ممر ضيق محاط بجروف شاهقة ، واستحال هنا التقدم أو الانسحاب عبر صفوف العدو إلا بالتعرض لخطر الموت ، وعبر بعضهم النهر ، وانسحب معظم هؤلاء ، بأمل انقاذ أرواحهم ، إلى أقرب حصن كان يدعى شقيف أرنون ، بينما سار آخرون بعد العبور على طول الضفة الأخرى إلى صيدا ، وتجنبوا بالتالي التيار العنيف للمعركة ، وصادفوا في الطريق رينو صاحب صيدا وجنوده ، الذين كانوا يسرعون السير نحو الجيش ، إلا أن رينو انصاع لتحذيرهم لدى علمه بهذه الكارثة وعاد إلى صيدا ، ويعتقد أن هذا العمل كان مسؤولا عن كوارث متعددة في ذلك اليوم ، فلو أنه واصل سيره إلى القلعة فلربما تمكن من انقاذ العديد من رجالنا من براثن العدو بمساعدة سكان المدينة والمنطقة الذين كانوا يعرفون المكان ، فقد حدث ، أن اختبأ الهاربون في تلك الليلة في كهوف بين الصخور . فاكتشفهم العدو في صباح اليوم التالي ، بعدما فتش كل زاوية وركن ، فأسرهم وألقاهم في السجن ، إلا أن الملك نجا سليما بمساعدة جنوده الملكيين . كما وصل كونت طرابلس إلى مدينة صور أيضا مع عدد قليل من الرفاق (٣٦٢)

كان من بين المسيحيين الذين أسروا في ذلك الوقت أودو دي سينت ـ أماند مقدم فرسان الداوية . وهو رجل شرير ، متكبر ومتعجرف سكنت في منخريه روح الحقد (٣٦٣) ، وكان انسانا لم يخش الرب ولم يحترم الانسان ، وقد حمله اشخاص عديدون مسؤولية الخسارة ، وخزيا دائما لايموت بسبب الكارثة ، ويقال إنه توفي ذلك العام اسيرا في سجن قذر فلم يحزن عليه احد.

. وكان بلدوين صاحب الرملة ، وهو رجل نبيل وقوي ، قد أسر هنالك

ايضا ، كما كان هيو صاحب طبرية قد وقع بالأسر أيضا وهو ربيب كونت طرابلس ، وكان رجلا في بداية شبابه يبشر بمستقبل رائع ، وقد أحبه الجميع كثيرا ، ووقع بالأسر هنالك آخرون كثر لا أعرف أسماءهم .

٣٠ ـ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا. يستولي عليها بهجوم عاصف ويدمرها . هنري كونت ترويز وبطرس اخو لويس ملك فرنسا يصلان الى سوريا .

كانت هذه هي حالة الأمور في المملكة في هذا الوقت ، وكانت حظوظنا في الدرك الأسفل عندما نزل في مدينة عكا الكونت الرائع لترويز وابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، والذي كنا قد افترقنا عنه في مدينة برنديزي في أبوليا عندما كنا عائدين من المجمع الكنسي . وكما تم ذكر ذلك ، وكان معه مجموعة كبيرة من النبلاء كما قدم في العبور نفسه نبلاء آخرون كان من بينهم بطرس دي كورثني أخو لويس ملك فرنسا ، وفيليب ، الأسقف المنتخب دبيوفيس ابن الكونت روبرت وأخو الملك لويس ، فأنعش قدومهم قلوب شعبنا التي أضعفتها الكوارث الأخيرة ، وبعث فيهم الأمل بأنهم قد يتمكنون بحماية نبلاء عظماء كثيرين من تفادي المحن في المستقبل وربما الثأر لمحن الماضي ، إلا أن هذا الأمل كان عقيما لأن الرب لم يكن معهم ، فلم يتمكنوا من التغلب على نتائج الكوارث الماضية ، ووقعوا حتى في مشاكل أكثر سوءا لأن صلاح الدين ، عدونا الأكثر ترويعا ، كان قد ارتقى إلى درجة من التكبر بسبب نجاحاته الكثيرة وحظه الجيد إلى درجة أنه ضرب الحصار فجأة ، وقبل أن نحصل على فرصة لاسترداد أنفسنا على حصننا الذي كان قد أنجز في شهر نيسان الماضي .

وضعت هذه القلعة ، التي تكرر ذكرها ، عند إنجازها تحت رعاية رهبان فرسان الداوية الذين ادعوا ملكيتهم لسائر تلك المنطقة بموجب تنازل من الملوك لهم .

استدعى الملك كامل قوات المملكة وجميع القوات العسكرية الأخرى وذلك عندما عرف أن صلاح الدين كان قد حاصر القلعة ، كما استدعى أيضا الكونت هنري والنبلاء الآخرين الذين كانوا قد وصلوا مؤخرا وأسرع إلى طبرية ، ودعا إلى الاجتماع به هنالك جميع زعماء المملكة بقصد الذهاب لمساعدة المحاصرين واجبار العدو على رفع الحصار .

وبينما كان ينتظر هنالك ، بعد أن أجل التحضيرات لمدة يوم واحد ، وصلت أقاويل ثبت أنها صحيحة كان مفادها أن العدو قد استولى على الموقع ودمره عن بكرة أبيه ، وأن جميع جنود الحامية التي كانت قد تركت هناك لحراسة القلعة قد غدت بين قتيل وأسير (٣٦٤) . وهكذا ، أضيفت كارثة أكبر إلى محنهم السابقة ، بحيث يمكن القول عنهم بصدق : « لقد تخلى الرب إلههم عنهم » . حقا إن « أحكامك لجة عظيمة » . و « ما أهيب أعمالك » (٣٦٥)

إنه الله الذي كان قد أضفى خلال العام المنصرم هبات كثيرة على أبنائه المؤمنين عرضهم لمحنة ارتداء الخوف العظيم والاضطراب الشديد ، من ذا الذي يعرف نية الرب ؟ ومن ذا الذي يشاركه بآرائه ؟ لماذا إذا أيها الرب ؟ هل سحبت تأييدك بسبب وجود الحشد الضخم العدد والكبير من النبلاء خشية أن يعزو لأنفسهم ذلك الذي لم يعط بسبب الجدارة بل بالرحمة ؟ أو ربما لأنهم لم يردوا ردا مناسبا على ما منحتهم إياه برحمتك من عطايا أيها المحسن إليهم ، أو « لأن الذي يحب الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله » (٣٦٦) لقد كسوت وجوهنا بالخزي حتى نلتمس اسمك المقدس المبارك إلى الأبد ، إننا نعرف ونعترف أيها الرب بأنك لا تتغير . لأنك

قلت« لأني انا الرب لااتغير» (٣٦٧) . ومع ذلك ، مهما كان السبب ، إننا نعرف انك عادل ايها الرب ، وان احكامك قويمة.

وتجددت في هذه الآونة المفاوضات التي كانت قد أجريت في العام السابق بخصوص دوق بيرغندي وذلك بوساطة عمه الكونت هنري . وكان من المؤمل وصوله في العبور الثاني ، إلا أنه رفض القدوم لأسباب مجهولة كما اتضح تماما فيما بعد .

هنا انتهى الكتاب الحادي والعشرون

obeikandl.com